مجلة جامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية

العدد العاشر
جمادى الآخرة ١٤١٤هـ

وجوه البيان في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إعداد

الدكتورة/ سميرة عدلي محمد رزق
قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :-

فهذا بحث متواضع تناولت فيه دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام - الوارد في كتاب الله في سورتى :-

- البقرة من آية ١٢٦ - ١٢٩ و - إبراهيم من آية ٣٥ - ٤١ .

ولعل من أسباب أختيار هذا الموضوع للتحليل والدراسة البيانية :-

(١) لأنه مثال جيد للدعاء الخاص في القرآن لاسيما وأنه يتضمن موضوعاً محدَّداً وهو الدعاء للمكان العزيز على قلب كل مسلم ومسلمة لاحتوائه على قبلة المسلمين ولأنه مهبط الوحي والرسالة المحمدية ومسقط رأس المصطفى صلى الله عليه وسلم، فضلا على أنه المكان الذي يقصده حجيج المسلمين في كل عام لأداء مناسكهم .

(٢) صدور هذا الدعاء الطيب عن أبي الأنبياء سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأم القرى مكة المكرمة فهو دعاء من أشرف أب لأطهر أم فأي سعادة يلقاها أبناء مكة بعد ذلك؟!

(٣) ظهور بركة هذا الدعاء واستجابته، فشتان بين ذلك المكان القفر يوم صدور ذلك الدعاء وبين مكة الآن فها نحن أولاء نعيش حضارتها ونتفيَّأ ظلال عمرانها ومازلنا نحظىٰ بمشاهدة تطور الحياة فيها وإقبال المسلمين عليها يوما بعد يوم وساعة تلو ساعة، وكم شاهدنا وشهدنا تعلُّق المسلمين بها وانشراح صدورهم

برؤيتها بل تكاد تكون المكان الوحيد الذي يصله المسافر فلا يشعر بغربته فيه عن أهله وذويه وقد يتمنَّى زائرها أن تكون هي أيضا مثواه الأخير.

(٤) شمول هذا الدعاء العذب لخيريّ الدنيا والآخرة سواء كان للنَّبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام نفسه وذرِّيته بصفة خاصَّة، أو لأبناء هذا البلد بصفة عامة.

(٥) أسلوب هذا الدعاء الذي امتاز بالإلحاح والخشوع في مناجاة الرَّبِّ عزَّ وجل مع مافيه من سلاسة الألفاظ وقوَّة التراكيب وجمال العبارات وبلاغتها.

هذا ولقد قدَّمت لهذه الدِّراسة بتعريف للدُّعاء في اللُّغة والاصطلاح الشرعي ثم أهمِّية الدُّعاء ـ مستنبطة من الكتاب والسنة ـ وآدابه وأماكن الدعاء المستجاب وأوقاته ثم كان منهج الدراسة للآيات الكريمات على النحو التالي :ـ

أولا : (أ) ذكر الآيات من سورة البقرة.
(ب) المعنى العام لها.
(جـ) التحليل والدراسة البيانية.

ثانيا : (أ) ذكر الآيات من سورة إبراهيم (عليه الصلاة والسلام).
(ب) المعنى العام لها.
(جـ) التحليل والدراسة البيانية.

ثالثا : تعقيب ومقارنة.

تذييل : يشمل العبرة من دعاء سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

التمهيـــد :

الدعاء في اللُّغة :

(الدعاء بالضم ممدوداً (الرَّغبة إلى الله تعالى) فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسؤال ومنه قوله تعالى[1]

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[2]

يُقال دَعَا دَعْوَىٰ. فالألف للتأنيث هنا وقال ابن فارس وبعض العرب يؤنِّث الدَّعوة بالألف فيقول الدَّعوىٰ[٣]

وفي الصِّحاح الدعاء واحد الأدعية وأصله دُعاو لأنَّه من دَعوتُ إلا أنَّ الواو لمَّا جاءت بعد الألف هُمِزت وتخاطب المرأة (أنتِ تدعين ولغة ثانية أنتِ تدعوين وثالثة باشمام العين الضمة ولخطاب الجماعة ـ رجالاً ونساءً يُقال تدعون[٤]

وجاء في مقاييس اللُّغة أن:

(الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوتُ أدعو دعاءً والدَّعوة إلى الطعام بالفتح. والدِّعوة في النَّسب بالكسر[٥]

ودَوَاعِي الدَّهر صُروفه كأنَّها تُمِيل الحوادث

ويُحمَل مجازاً على هذا الباب أن يُقال دَعَا فلاناً مكان كذا، إذا قصد ذلك المكان، يقول ابن فارس (كأن المكان دعاهُ وهذا من فصيح كلامهم)[٦]

وكأنَّ ابن فارس هنا يريد أن يتَّسع في توضيح المعنى ليكون عامَّاً ونقصد بذلك أنه يريد أن يذكر المدى الواسع لاستعمال مادَّة (دَعَوَ)، فهي ليست فقط مستعملة في إمالة المطلوب من المولى عزَّ وجل في الابتهال، وإنَّما في أي شيء يُراد إمالته إلى المتكلِّم ـ حسب كلامه السابق عن هذه المادة.

والدُّعاء في اللُّغة أيضاً يرِد بمعنى الصلاة[٧]

واستشهد على ذلك بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ[٨]

«إذا دعي أحدكم إلى طعام فليُجِب، فإن كان مُفطراً فليأكل وإن كان صائماً فليصلِّ».

وفي نفس المعنى قال الأعشى: [٩]

تقولُ بنتي وقَد قَرُبْتُ مرتحلاً يارَبِّ جَنِّبْ أَبي الأوصابَ والوجَعَا
عَلَيكِ مِثْلَ الَّذِي صَلَّيتِ فاغتمضي نَوْماً فإنَّ لجنبَ المَرءِ مُضْطجعَا

الدعـــاء في الاصطلاح :

وقصدنا هنا بالمعنى الاصطلاحي هو ماورد للدُّعاء من معانٍ في القرآن الكريم وقد ذكر ذلك الراغب الاصفهاني بقوله :ـ

(الدُّعاء كالنِّداء إلَّا أنَّ النِّداء قد يُقالُ بيَا أو أيَا ونحو ذلك من غير أن يُضم إليه الاسم ، والدُّعاء لا يكاد يُقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يافلانُ ، وقد يُستعمَل كل واحد منهما موضع الآخر.

قال تعالى :[١٠]

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ .

كذلك يستعمل في القرآن استعمال التَّسمية[١١]

كقوله تعالى :ـ[١٢]

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

وتأتي بمعنى الاستغاثة كقوله تعالى :ـ[١٣]

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾

كما تأتي بمعنى الحَثِّ على قَصْد الشيء قال تعالى :[١٤]

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

ووردت أيضاً بمعنى الادِّعاء قال تعالى :[١٥]

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

وبمعنى الدعوىٰ لقوله تعالى :[١٦]

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

الباب الأول

الدُّعاء في الكتاب والسنة

لن نطيل الوقوف هنا فهذا مجال خاض فيه الباحثون خوضتهم وجال فيه المتخصِّصون جولتهم، ولكنَّا سنشير فقط إشارة وجيزة إلى بعض الأمور التي يحب كل قارىء ـ لهذا العمل المتواضع ـ أن يطَّلع عليها إن فاته الاطلاع على الكتب المتخصَّصة في هذا المجال.

ولعلَّ أوَّل ما يتبادر إلى ذهن القارىء هو هذا السؤال:ـ

كيف تُستَنْبَط أهمية الدُّعاء وحكمه من القرآن الكريم والسُّنة النَّبويَّة الشريفة؟

وهنا لن يكون حديثنا أكثر من بعض الآيات والأحاديث النَّبوية الكريمة الواردة في هذا الموضوع ثم التعليق عليها لبيان ذلك الحكم.

وحسبنا أن نتذكَّر هنا قوله تعالى:[١٧]

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فالآية ـ كما نرى تحمل الأمر الإلهي وثمرة فعله ومن أصدق من القرآن حديثاً؟!

وقوله تعالى:[١٨]

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وقد فُسِّر الدُّعاء هنا بمعنى العِبَادة[١٩]

أما عن موقف الرسول الكريم ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ من الدُّعاء ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ فيتجلَّى في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم:[٢٠]

«من لم يدع الله ـ سبحانه ـ غضب عليه

وقوله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ[٢١]

«ليس شيء أكرم على الله ـ سبحانه ـ من الدُّعاء فالدعاء ضرورة وواجب.

آداب الدُّعاء:

أما عن آداب الدعاء فقد استرعى اهتمامي قول الإمام الغزالي رحمه الله:[٢٢]

(خشوع القلب، وجمع الهمِّ، وإظهار الذُّلِّ، وحُسن النَّظر وَخفْض الجناح، وسؤال الفاقة[٢٣] ولَجأ الغريق، ومعرفته بقدر نفسه، وعظيم المسؤول، وبسط الكفء عند الرَّغبة، واليقين بالإجابة، والخوف من الخيبة، وانتظار الفرج، وترك العدوان وصحة القصد واللُّجوء، ومسحه الوجه بباطن الكفِّ بعد الدعاء).

ومن شرط المَدعو به أن يكون مما يجوز طلبه وقد قال صلَّى الله عليه وسلم، في ذلك[٢٤]

«ما من مسلم يدعو بدعاء إلا استجيب له، فإمَّا أن يُعجَّل له في الدُّنيا، وإما أن يُدَّخر له في الآخرة، وإمَّا أن يُكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم)[٢٥]

وقد ورد في الأثر عن الحسن أنَّه دخل على أبي عثمان النِّهدي يعوده وهو مريض، فقيل لأبي عثمان يا أبا عثمان أدعُ الله بدعوات فقد بلغك في دعاء المريض ما قيل فيه قال: فحمد الله وأثنى عليه، وتلا آيات من كتاب الله تعالى، وصلَّى على النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ـ ثم رفع يده ورفعنا أيدينا، فدعا فلمَّا وضعنا أيدينا قال:ـ

أَبشروا، فوالله قد استجاب لكم، فقال الحسن أتأتلي على الله؟ قال نعم ياحسن، لو حدَّثتني بحديث لصدقتك فكيف لا أصدِّقه وهو يقول: «أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» فلما خرجوا قال الحسن إنَّه لأفقه منيٍّ)[٢٦]

فالقِصَّة السابقة تُثبت أهمِّية وجود الإيقان في استجابة المولى عزَّ وجل وضرورة عدم الاستهانة بها أو الغفلة عنها.

أمَّا عن أوقات الاستجابة ومكانها، فقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى ذلك[٢٧] ونكتفى هنا بتعداد الأوقات والأماكن فعن الأوقات فهي :-

ليلة الجمعة ويومها وساعة فيها[٢٨]

وفي جوف الليل ودُبر الصلاة وبين الآذان والإقامة وعند الإقامة وعند القتال والجهاد في سبيل الله وفي السجود وعند تغميض عين الميت، وعند احتضار الميت، وعند تلاوة القرآن لاسَّيما عند ختمه، وعند قول الإمام ولا الضالِّين، وفي شهر رمضان وليلة القدر، وفي اجتماع المسلمين في مجالس الذِّكر وتلاوة القرآن، ويوم عرفة وعند نزول الغيث وعند شرب ماء زمزم وعند صِياح الدِّيكَة[٢٩]

أمَّا عن أماكن استجابة الدُّعاء - وأردنا بذلك الأفضليَّة - فعند رؤية الكعبة مثلاً أو في داخل المسجد الحرام، وفي مسجد رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم - وفي عرفة وعند المشعر الحرام من الأماكن المقدسة.

وليس كون الإنسان في هذه الأماكن شرطاً في إجابة الدعاء وإنَّما فُضِّلت لقداستها والدليل على ذلك قوله تعالى[٣٠]

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

وقوله تعالى[٣١]

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

فالآيتان - كما نرى - تشملان كل زمان ومكان وتشيران إلى كرم المولى وقرب استجابته - عَزَّ وجلِ -

أنواع الدعاء في القرآن الكريم

من خلال التأمل في كتاب الله العزيز لاحظنا نوعين من الدعاء ـ وإن كنا نلحق بهما شيئاً آخر.

أمَّا النوعان الأساسيان فهما:ـ

أولا : ما يمكن أن نسمِّيه بالدُّعاء العَام والآخر ما نسمِّيه بالدُّعاء الخاص.

أمَّا الدُّعاء العام:

فهو على حسب مفهومنا الشخصي ذلك النَّوع الذي يُمكن أن يَلْهَج به كلُّ مبتهِل إلى الله بلسان القرآن الكريم في أيّ زمان أو مكان مثل قوله تعالى[٣٢]

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقوله تعالى: [٣٣]

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

والدُّعاء الخاص:

أيضاً حسب مفهومنا هو ذلك الدعاء الذي ورد في مناسبات معيَّنة على لسان الأنبياء خاصَّة وبعض الصَّالحين، كدعاء سيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام عندما أسكن زوجَته وابنه بمكة في قوله تعالى: [٣٤]

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

ودعا النبي نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: [٣٥]

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾

ودعاء النَّبي موسي عليه السَلام عندما سقى للفتاتين وقد شعر بلذغ الغربة في أرض مدين فآوى إلى الظلِّ وناجى ربَّه[٣٦]

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾

وغير ذلك من الدُّعاء الوارد في القرآن الكريم على لسان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما النوع الذي نرى أنهَّ يمكن أن يُلحق بهما فهو تلك الآيات التي تحمل معنى الدُّعاء وليست صريحة فيه مثل قوله تعالى[٣٧]

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾

وقوله تعالى: [٣٨]

﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

ونظراً لصراحة النوعين الأوَّلين في الدعاء وكثرتهما في القرآن الكريم، فقد وقع الاختيار في هذا البحث على دراسة وتحليل دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كمِثال للنوع الثَّاني من آيات الدعاء (الدُّعاء الخاصّ في القرآن) والذي سبق التعريف به[٣٩]

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الآيـــــات

قال تعالي :[٤٠]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وكذلك قوله تعالى من سورة أخرى[٤١]

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

كتابخانه ومركز اطلاع رسانى
بنياد دايرة المعارف اسلامى

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾

هذه هي الآيات الواردة في القرآن الكريم في الدُّعاء على لسان أبي الأنبياء سيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام عن مكة والتي سنتناولها بالدِّراسة والتَّحليل فيما يلي من الصَّفحات بعون الله وتوفيقه.

المعنى العام لآيات سورة البقرة:

قيل إن المقصود بالبلد هنا مكة المكرمة(٤٢)، فقد ورد أن الله تعالى حرَّمها والمقصود بالحُرمة هو أنها لم تزل حرماً من الجبابرة المسلَّطين ومن الخوف والزلازل وسائر مايمكن أن يُهِّدد البلاد من المصائب والمحن، ويؤيِّد هذا الرأي حديث ابن عباس: رضي الله عنهما إذ قال: (٤٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرَّمه الله لايُعضَدْ شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها».

ولم يكتف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بطلب الأمن لمكة ـ المشرفة ـ بدعائه بل ويدعو لأهلها المؤمنين منهم بالرزق الطِّيب والثمرات الطيبات، أما الكافر منهم فقد ذكر السياق الطاهر أن المتاع له محدود ومؤقت وذلك بفترة بقائه في الدنيا فقط ثم يضطر بعد ذلك إلى عذاب النار وبئس المأوى والمُستقر(٤٤)

ثم يوضِّح السياق الكريم الوضع أو الحالة التي كان عليها كل من سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام أثناء بناء الكعبة المشرفة فقد قيل: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يبني واسماعيل عليه السلام ـ يناوله الحجارة وهما يقولان أو يدعوان في خضوع وذِلَّة ـ رغم عملهما الجاد ومكانتهما الحميدة من الله جلَّ وعلا ـ يقولان ربَّنا تقبَّل منا إنك أنتَ السَّميع العليم ـ أي سامع لدعائنا عالم لضمائرنا وما تخفيه صدورنا من إخلاص في النيَّة والعمل ثم تستمر معهما هذه المشاعر العظيمة الفياضة ويتمَّان الدعاء ـ كما جاء في السياق الكريم ـ ويطلبان من المولى عز وجل أن يمنَّ عليهما بالإسلام. وقد قيل في ذلك أنهما كانا مسلمَيْن وأرادا بهذا الدعاء الثَّبات

على الإسلام أو الإخلاص فيه[٤٥] وقيل المراد الاستسلام لأمر الله والخضوع لطاعته[٤٦] وقد عما بدعائهما هذا ذريَّتهما جميعا، فهم أحق بالشَّفقة وهم أحق بالكرم والعطاء لأن صلاح أبناء الأنبياء هو صلاح لمن جاء بعدهم جميعا وشايعهم وقد قيل إن المقصود بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم[٤٧] وقيل المقصود من الأمة هي جماعة من الناس[٤٨]

ثم لايفوت هذين النبيَّين الكريمين أن يطلبا من المولى عزَّ وجل أن يتمَّ نعمته عليهما وعلى ذرِّيتهما برؤية مناسكهم ومعرفتها ليتمَّ لهم الدين وليكونا أهلاً لهذه النبوَّة الشَّريفة، كما يطلبان من الله التوَّبة والغفران في صغائر الأمور وهفواتها ـ وهذا شأن كل عابد يهاب لُقْيَا الله وحسابه فكيف بالأنبياء وهم أحرص النَّاس على التَّوبة والغفران؟!

ثم يستمر دعاؤهما للذرية المباركة ـ بهذا الدعاء ـ أن يبعث عز وجل منهم رسولا يتلو عليهم الآيات ويعلمهم ما تضمنته من أحكام ويرشدهم إلى ما احتوت عليه من شرائع وحكم فهو سبحانه عزيز لا يعزُّ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع الأمور في مواضعها سبحانه وتعالى ـ وقد حقق الله سبحانه وتعالى هذا الدعاء فأرسل فيهم النَّبي محمَّداً ـ صلى الله عليه وسلم معلِّماً وهادياً وبشيراً ونذيراً[٤٩]

فقد قال صلى الله عليه وسلم[٥٠]

أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى ورؤيا أمي[٥١]

مناسبة الدعاء للسياق[٥٢]

بالنظر إلى آيات الدعاء في السياق نلاحظ أنها وردت تلو الآيات المتحدِّثة عن اختلاف اليهود والنصارى معا ثم عن اختلافهم مع المسلمين ومحاولتهم الجادة في أن يغيروا ملة المسلمين وجذبهم إليهم بكل الوسائل والطرق[٥٣]

فكان من المناسب هنا الحديث عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقصة بناء البيت العتيق[٥٤] وجعله قبلة للمسلمين بعد ذلك وملجأ للناس جميعاً ثم أمره سبحانه لنبيه الكريم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام أن يطهرا هذا البيت ويعداه

للعباد جميعا من طائفين وعاكفين ومن إليهم، ثم تأتي هنا بعد هذا المعنى مباشرة هذه الدَّعوة الطيبة من الأب الكريم. . . ليتم الأمن، إذ لا أمن بلا رزق، فالبيت الحرام ـ كما نعلم ـ في مكان قفر لا ماء فيه ولا ثمر، ولحرص النبي الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام على طاعة الله عز وجل وتنفيذ أمره واستقرار ذلك الأمر من نفسه استقرار الروح من الجسد، فقد أُلهم عليه السلام ـ هذه الدعوة المباركة ليعمَّ الخير مكة وتظل بلداً آمنا يُجبي إليه الرزق من كل مكان فيحبها الناس ويألفها من يدخلها، بل ويتمنى ألا يتركها، وهل يُترك بلد فيه بيت الله الحرام وفيه الأمن والرزق الحلال ـ إلَّا لظروف قاهرة؟!

وتـأتي منـاسبة هذا الدعاء للآية التالية له مباشرة جميلة إذ يبدو فيها وفاء النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ لهذه الأمة المحظوظة. . بهذا الدعاء الكريم المبارك ـ فلا يكتفي عليه السـلام بالـدعـاء لهم بالأمن والرزق بل ويطلب الله تعالى للأمة المسلمة جميعاً أن يبعث فيهم ما يُضيء لهم الطريق ويرشدهم إلى سواء السبيل جزى الله عنا أنبياءنا خير الجزاء وصلى الله عليهم جميعا وسلم تسليما كثيرا.

دراسة الآيات وتحليلها بيانياً:

لنعد هنا إلى نص الدعاء الشريف في سياق الآية الكريمة الآتية[٥٥]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

قيل إن (إذ هنا معطوفة على ما قبلها من قوله وإذ جعلناه. . .)
إمَّا بالذَّات أو بعامله المصير)[٥٦]

وهي معطوفة لبيان مِنَّة أو مِنن أخرى على أهل الحرم وهي ماتضمنه دعاء إبراهيم عليه السلام[٥٧]

وجملة (قال) هنا أغنت عن جملة (دعا).مثلا بل هي أبلغ في السياق من غيرها لأن نصَّ الدعاء ورد صريحاً في قوله (ربِّ) أي يارب وحذفت ياء النداء هنا وعوِّض عن ياء المتكلِّم بالكسر للتَّخفيف[٥٨]

ثم لنتأمل لفظ (ربِّ)، فالربُّ في اللُّغة يطلق على (الملك والسيِّد والمدبِّر والمربي والمتمِّم)[٥٩] ويُراد بها الله عزَّ وجل ملك الملوك وإذا أضيفت يُمكن أن تُطَلق عليه مثل ربّ العالمين أو على غيره فيقال ربّ كذا مثل ربّ البيت أي سيده.

وجمع الربِّ أربَّه وأرباب قال تعالى:[٦٠]

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

وكون الدعاء يبدأ بهذا اللفظ الدَّال على هذا المعنى مع إضافته لياء المتكلِّم إنَّما يدلُّ على كمال الخضوع والتذلُّل.. وهنا يكون أدعى للاستجابة من المدعو عزَّ وجل[٦١] لذا كانت لفظة (ربي) التي تفيد الخصوص هي التي يفضِّلها السياق عن لفظ الجلالة (يا الله) مثلاً الذي يفيد العموم يقول في ذلك أبو حيَّان رحمه الله:ـ

(وناداه بلفظ الرَّبِّ مضافاً إليه لما في ذلك من تلطفُ السؤال والنداء. بالوصف الدَّال على قبول السائل وإجابة ضراعته)[٦٢]

أمَّا جملة (اجعل) فنلاحظ أن (اجعل) هنا بصيغة الأمر وقد خرج هنا إلى معنى الدعاء لأنه موجَّه من العبد إلى الرَّب عز وجل[٦٣]

أما جَعَلَ في اللغة فهو:

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(لفظ عام من الأفعال كلها وهو أعمُّ من فعل وصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه:[٦٤]

أولها: يجرى مجرى صَار وطَفِقَ فلا يتعدَّى مثل:ـ

جعل زيد يقول كذا....

وثانيها: قد يجرى مجرى أَوجَدَ فيتعدَّى لمفعول واحد مثل قوله تعالى:[٦٥]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

وثالثها: بمعنى إيجاد الشيء من شيء آخر وتكوينه منه.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[٦٦]

ورابعها: في تصيير الشيء، على حالة دون أخرى مثل قوله تعالى[٦٧]

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾

وخامسها: الحكم بالشيء على الشي حقاً أو باطلاً، أما الحق فمثل قوله تعالى: [٦٨]

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

والباطل مثل قوله تعالى: [٦٩]

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾

والمعنى المراد هنا ـ والله أعلم ـ هو المعنى الرابع وهو تصيير الشيء على حالة دون أخرى ـ فقد طلب النبي الكريم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يتحول الوادي القفر إلى بلد آمن برزقه وهدوئه، فكان له ما أراد.

كما نرى أن جملة (واجعل) لطيفة رقيقة فضلاً عن بلاغتها وجمالها في موضعها رغم وجود جملة أخرى يمكن أن تعادلها في المعنى وهي جملة (صَيّر) مثلاً. ولكننا نرى أن السياق القرآني هنا احتوى على جملة (اجعل) مع الدعاء لرقة حروفها وخفة جرسها المناسب للمقام الشريف الذي قيلت فيه.

ثم جاء بعدها قوله تعالى: (هذا بلدا آمنا) ونلاحظ هنا بلاغة في التركيب السابق فقد اشتمل هذا التركيب على إيجاز حذف في المفرد إذ اتفقت كتب التفسير على أن تقدير الكلام هو:ـ رَبِّ اجعل هذا المكان أو هذا البلد بلداً آمناً. .)[٧٠]

وفي تنكير لفظ (بلداً) هنا أيضا مبالغة فقد قال في ذلك الفخر الرازي (فقوله (اجعل هذا بلداً آمناً) تقديره أجعل هذا البلد بلداً آمنا، كقولك كان اليوم يوماً حاراً وهذا إنما تذكرة للمبالغة في وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة، فقول «ربِّ اجعل هذا بلدا آمنا» معناه اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، وأما قوله (رب اجعل هذا البلد آمنا فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة)[٧١] وقيل إن التنكير هنا أفاد أن يتحول هذا المكان القفر إلى بلد أولاً ثم يكون آمناً بالدرجة الثانية وهذه دقة ظاهرة في أداء المعنى[٧١]

هذا من جهة المبالغة والدقة في أداء المعنى أمَّا إذا أضفنا إلى ذلك جمال التعبير وبلاغته في نفس هذا التركيب أدركنا الظلال الوارفة الجميلة التي تضفيها ألفاظ القرآن على تراكيبها . . . وتتضح هذه البلاغة في أن قوله تعالى (هذا بلداً آمناً) هي مشابهة لقولنا عيشة راضية[٧٢] أي ذا أمن وهو مايسمَّى بالمجاز العقلي في علم البلاغة[٧٣] وعلاقته هنا المفعوليَّة .

ويمكن أن يكون المراد آمناً من فيه مثل ليل نائم[٧٤] وعلى هذا تكون من المجاز العقلي أيضا إنما علاقته هنا المكانيَّة ثم تتوالى الدَّعوات الخيرات التي تهيء لهذا البلد المبارك ما يحقِّق الدعوة الأولى فيأتي القول (وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمراتِ) ولنقف هنا قليلاً أمام جملة (وارزق) المعطوفة على ما قبلها بالواو ـ لنرى صدى الدقة في مجيئها . . . بدل جملة (واعطِ) مثلاً تبدو هذه الدقَّة عندما نعلم الفرق بين العطاء في اللغة وبين الرزق، فالعطاء في اللغة لا يخرج عن معنى الأخذ والمناولة يقول ابن فارس :ـ

(العين والطاء والحرف المعتل أصل واحد صحيح يدل على أخذ ومناولة، لا يخرج الباب عنهما، فالعطو التناول باليد)[٧٥] ومنه اشتق الإعطاء . والمعاطاة المناولة ـ فيقال عاطى الصبي أهله إذا ناولهم ما أرادوا .ـ

فالعطاء اسم لما يُعطى : قال العسكري (الإعطاء هو اتصال الشيء إلى الأخذ له ألا ترى أنك تعطي زيداً المالَ ليردَّه إلى عمرو وتعطيه ليتجر لك به . . . إلى أن يقول ثم كثر استعمال الاعطاء حتى صار لا يطلق إلا على التَّمليك فيقال أعطاه مالاً إذا ملَّكه إياه والأصل ما تقدم)[٧٦]

ومن هذا الأصل في الاستعمال ندرك الدِّقة في وجود جملة (وارزق) إذ أنَّ الرزق في اللغة هو عطاء الله عزَّ وجل[٧٧] وهو ما يُعطى للغير فيصبح حلالا عليه قال العسكري :ـ

(إن الرزق اسم لما يملك صاحبه الانتفاع به فلا يجوز منازعته فيه لكونه حلاًلا له)[٧٨]

وبالنظَّر إلى هذا الفرق بين العطاء الذي يعني مجرد المناولة حتى بين الاشخاص

وبين الرزق الذي لا يكون إلا من الله عز وجل ويكون للمرتزِق حق في حرية التصرف فيه ـ نقول من هذا الفرق الدقيق ندرج جمال وجود جملة (ارزق) في السياق من (اعظ) مثلا.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام يريد لأهل مكة الرزق الحلال على أهله ليشعروا بالاستقرار والأمن الحقيقي. أما قوله تعالى:ـ

(... أهله من الثَّمرات) فواضح فيه أن طلب الرزق ليس مجرَّد أي شيء وإنما أفضل ما يمكن أن يتمناه إنسان في بلدٍ ما وهي الثمرات فكما نعلم أن ثمرة الشيء هي النفع الصادر عنه ـ فمثلاً ثمرة العلم هي العمل الصالح وثمرة العمل الصَّالح الجنة[٧٩]

ويُقال في الدُّعاء للرجل ثَمَّرَ اللهُ مالَه أي نمَّاه[٨٠]

فمن رحمة الله تعالى بأهل مكة وفضله عليهم أن يدعو لهم نبيّ مبارك برزق ليس فيه جهد جهيد ولا قلق أو تفكير في نتيجة العمل له بل ثَمرات منه جاهزات للقطف والانتفاع... فأي بلاغة وجمال في التعبير أكثر من هذا؟!.. ثم إن «أل» هنا في الثمرات أفادت الاستغراق أي جميع الثمرات المعروفة لدى الناس.. فأي رفاهٍ أعظم من هذا..؟!

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ذلك هو القرآن الكريم الذي لا تداني فصاحته فصاحة الفصحاء ولا تقرب من أسلوبه بلاغة البلغاء.

وها نحن أولاء نسير مع الآية الكريمة نتفيأ ظِلالها ونستنشق عبير ألفاظها المعطاء، فالسياق الكريم يبين لنا القيد الهام الذي قيد به النبي الكريم دعوته فيقول تعالى بعد ذلك مباشرة:ـ

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

فالدعوة السابقة هي للمؤمنين فقط من أهل مكة فهي بدل بعض من كل أو بدل اشتمال مخصَّص لما دلَّ عليه المُبَدل منه وفائدته أنه يصير مذكوراً مرتين إحداهما بالعموم

السَّابق في لفظ المُبدَل منه ـ والثاني بالتنصيص عليه وتعيين أن المُبدَل منه إنما عني به وأريد البدل فصار مجازاً إذا أُريدَ بالعام الخاص[٨١] وقُصِد إنه مجاز مرسل علاقته الكلِّية مثل:

(قُطِعَ السارقُ) أي يده[٨٢]

وذلك لأنه ـ كما نعلم ـ كان يسكن مكة قبل فتح الرسول لها غير المسلمين أيضاً فكان لابد أن يتأدب النبي الكريم وألا يفوته ذلك في دعائه لا سيَّما وأن النَّص والقِياس يقولان ذلك.

أمَّا النَّص فقوله تعالى:[٨٣]

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

وأما القياس فمن وجهين:ـ

أولهما: إنه لما سأل الله تعالى أن يجعل الإمامة في ذريَّته قال تعالى:[٨٤] ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

وقد بيَّن سبحانه الفرق بين النبوَّة ورزق الدُّنيا فقال:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الآية

وثانيهما: وربَّما يكون سيدنا إبراهيم عليه السلام قد ظنَّ أنه لو دعا لمن كفر أيضا بالرزق سيكون ذلك سبباً في كثرة الكفار في مكة فتكثر المفسدَة والمضرَّة على النَّاس الذاهبين إلى الحج فخصّ المؤمنين بالدعاء لهذا السبب[٨٥]

ولكن رغم ذلك فالرحمة الإلهية تشمل كل شيء، فيأتي الرد في السياق القرآني نفسه مباشرة إذ يقول تعالى:ـ

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾.

نعم هذه هي عادة القرآن الكريم يأتي بالمقابلات في المعني ليتمَّ للقاريء والسامع علم كل مايريد أن يعلمه أو حتى ما تستشرف نفسه للسؤال عنه.

فكأن نفس السامع هنا تتساءل بعد هذه الدعوة وما شأن من كفر؟ وهو وجه بلاغي من أوجه إخراج الخبر[٨٦]

كذلك في تحويل الضمير من الخطاب في الدعاء (رب اجعل هذا . . .) إلى ضمير الغائب (قال ومن كفر) ما يُعرَف بالالتفات[٨٧]

وأيضا في نفس السياق إيجاز حذف في المفرد إذ تقدير الكلام ارزق من آمن وكفر.

أما قوله (فأمتِّعه) فهو معطوف على ذلك الفعل أو في محل رفع بالابتداء. وخبره فأمتِّعه ودخلته الفاء تشبيهاً له بالشرط[٨٨]

وقوله (فأمتِّعه) فيه قراءتان ترتَّب عليهما اختلاف معنيين:-

أما القراءة الأولى: فهي بصيغة الأمر- أي فأمتِّعه بسكون الميم وكسر التاء- تدخل في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكذلك اضطره - أي دعا على من كفر بالمتعة قليلاً في الدنيا ثم الاضطرار إلى عذاب الجحيم[٨٩]

والثانية: بتشديد الميم مع فتحها وتشديد التاء)أُمَتِّعه) وفي هذا التشديد ما يدل على التكثير بخلاف التخفيف، وبهذا يكون المعنى أن الله عز وجل ردَّ على سيدنا إبراهيم عليه السلام إنه سيمتِّع الكافر فترة بقائه في الدنيا فقط[٩٠].

والمتعة هنا قُصد بها الرزق وقيل بالبقاء في الدنيا وقيل بهما إلى خروج محمد صلى الله عليه وسلم - فيقتله أو يخرجه من مكة إن أقام على الكفر[٩١]

وفي قوله (أضطره) قراءتان أيضاً.

فالأولى: بصيغة الأمر كما في فأمْتِعه فتكون ضمن دعاء إبراهيم عليه السلام على الكفرة - وفي قال ضمير يعود على الدَّاعي وُفصِل عما قبله لأنه دعاء على الكفرة وفي هذا الالتفات وتغيير الضمير لسبب اضطرارهم إلى عذاب السعير[٩٢]

أما القراءة الثانية: فهي (أضطره) على وفق قراءة (فأُمَتِّعه) وبهذا يكون من قول الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام[٩٣]

والاضطرار هنا يعني شيئين هما:-

أولا: اللجوء إلى عمل الشيء، دون الرغبة فيه بل مع كرهه وقيل إن أصله من الضرِّ وهو إدناء الشيِّء، من الشيء، ومنه ضرَّة المرأة لقربها منها.

وثانيا: أن يُجْبَر الفاعل على الفعل بالتهديد والتخويف حتى يفعله بعد ذلك اختيارا[٩٤] مثل قوله تعالى: [٩٥]

«فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عاد»

ونَميل هنا إلى الرأي الأول وهو اللجوء إلى فعل الشيء. مع كُرهه لأن إيحاء اللفظة وجرسها في الآية الكريمة فضلاً عن موضعها من السياق يدل على قُرب المعنى عن غيره.

ثم تُختتمَ الآية الكريمة بفاصلة هي تذييل على ماقبلها أفاد المعنى تقوية وتوكيداً[٩٦] وهو قوله تعالى: ﴿وبئسَ المَصِير﴾ والجملة تشتمل على إيجاز حذف في المفرد. إذ حذف مخصوص بئس وتقديره (النَّار)، لمعرفته.

ثم ينتهي هذا المشهد القرآني الجليل ببيان نهاية الكفر ومصيره.

وها هو ذا يعود بنا السياق مرة أخرى إلى مشهد جديد في بداية جديدة ومنطلق سعيد، هذا المنطلق هو بداية رفع البيت الحرام بمكة المكرمة، هذا البناء المقدَّس الذي شرَّف الله به مكة وكرَّمها فقال تعالى: [٩٧]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

(وإذ يرفعُ إبراهيمُ القَواعِدَ) جملة معطوفة على قوله السابق (وإذ قالَ إبراهيمُ) ونلاحظ مجيء يرفع للحاضِر مع أن (إذ) للمضي وكذلك القصة قديمة إلا أنَّه أوثرت صيغة الحاضر معها (استِحضاراً بهذا الأمر ليقتدي الناس به في اتيان الطَّاعات الشاقَّة مع الابتهال في قبولها وليعلموا عظمة البيت المبني فيعظِّموه)[٩٨]

أما قوله (القواعدَ) فهي لفظ جمع أصله صِفة ولكن استعمل استعمال الأسماء الجامدة ومفرده قاعدة وهي مأخوذة من القعود أي الثَّبات[٩٩] وقاعدة الشيء، هي أساسه والمعلوم أن أساس الشيء لا يرتفع وإنما يبقى في مكانه ولكن لما بُني عليه انتقل

إلى هيأة الارتفاع أي أن (يرفع إبراهيم) تعني هنا يبني على الأساس الموجود وقيل أن الرَّفع هنا يعني الرِّفعة والشَّرف[١٠٠] ونأخذ هنا بالرأيين فهذا البناء قد اكتسب رفعته وشرفه لسببين :

أولهما : لأنه بيت الله الحرام وكعبة المسلمين

وثانيهما : لأن رافعه وبانيه هو نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لذا فهو مبنيٌّ رفيع المنزلة شريف القدر لا يدانيه في مكانته وعلو شأنه مبنى آخر.

وفي قوله (القواعد من البيتِ) بلاغة أكثر من قولنا مثلاً (قواعد البيت) هذه البلاغة تبدو في ما أضفاه هذا الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم للمعنى بعد التَّشوق إلى معرفته[١٠١]

وقوله (مِنَ البيت) من، هنا لابتداء الغاية في الشيء، أو هي (حال من القواعد)[١٠٢] والرأي الأول أرجح عندنا.

أما قوله (وإسماعيل) فهو فاعل آخر معطوف على إبراهيم السابقة ونلاحظ هنا تأخر هذا الفاعل الثاني عن مفعول (القواعد) وذلك لبيان أن الأصل في رفع القواعد كان لسيدنا إبراهيم عليه السلام وإسماعيل إنه ما كان إلا مُناولاً أو مساعداً له[١٠٣]

هذا فضلا عن أننا نرى إن وجود المفعول (القواعد) خلف لفظ (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام يُكسب المعنى شرفاً ورِفعة أكثر مما لو أخر عن ذلك.

أما قوله (ربَّنا تقبَّل مِنَّا) يقال إن أصل الكلام يقولان ربَّنا تقبَّل مِنَّا وقرأتِ بذلك[١٠٤] وعلى هذا تكون الآية اشتملت على إيجاز حذفٍ في الجملة إذا حُذفت جملة (يقولان) وبهذا يكون موقع هذه الجملة حالا منهما عليهما السلام.

وقيل إنه (هو العامل في إذ والجملة معطوفة على ما قبلها والتقدير ويقولان ربَّنا تقبَّل مِنَّا إذ يرفعان أي وقت رفعهما)[١٠٥]

وقيل إن (وإسماعيل) الواو واو الحال وإسماعيل مبتدأ أما خبره فتقديره يقول ـ وبهذا يكون البناء لإبراهيم عليه السلام والدعاء لإسماعيل عليه السلام[١٠٦]

ولكنَّا نميل إلى هذا الرأي الأوَّل وهو حذف جملة (يقولان) لاسيَّما وأنها لها قراءة أخرى بإثبات (يقولان)[١٠٧] وعدم حذفها ـ كما يؤيد هذا التأويل أن العطف في وإسماعيل أظهر من أن تكون الواو حاليّة[١٠٨]

أما قوله تعالى «ربَّنا تقبَّل مِنَّا) فنلاحظ افتتاح الدُّعاء باللفظ (ربنا) وقد سبقت الاشارة إلى ما في هذا اللفظ من الإنابة والخشوع مع التلطف والاستعطاف في ذكر هذه الصفة الدالة على التربية والاصلاح[١٠٩] (وتقبَّل) هنا بمعنى أقبل أي أعمالنا التي قصدنا بها طاعتك ورِضاك يقول أبو حيَّان في (تقبَّل) (وتقبَّل بمعنى أقبل فتفعل هنا بمعنى المجرَّد كقولهم تعدَّى الشيء وعدّاه وهو أحد المعاني التي جاء لها تفعَّل والمراد بالتفعُّل الإثابة عبر بأحد المتلازمين عن الآخر لأن التقبُّل هو أن يقَبل الرجلُ من الرجلِ مايهدي إليه فشبَّه الفعل من العبد بالعطية والرضا من الله بالتقبُّل توسُّعا)[١١٠]

هذا وقد نقل أبوحيان عن بعض المفسرين أن بعض الناس فرَّق بين التَقبُّل والقَبُول وذكر أن التَّقبُّل لا يكون إذا كان العمل المقدم ناقصاً فيحتاج المقدَّم إليه أن يتكلَّف في قَبوله ولكن أبا حيان يستبعد التكلُّف أن يكون من الله عز وجل[١١١]

ونرجِّح هنا ما استبعده أبوحيان ـ رحمه الله ـ وإن كنَّا نقول:ـ إن هذه الجملة (تقبل) قد نقلت لنا إحساس النَّبيين الكريمين بالتقصير تجاه رب العزَّة جلَّ وعلا ـ وهذه هي عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ـ فهم أتم النَّاس في أعمالهم وأكثرهم إحساساً بالتَّقصير نسأل الله تعالى أن يجعل لنا نصيباً من خلقهم العظيم.

أما قوله تعالى:ـ

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فكما نلاحظ أن الجملة القرآنية تبدأ بحرف التوكيد إن الذي أعطى السياق بعدها قوة وتأكيداً لمعناه ثم تلا هذا الحرف المؤكِّد كاف الخطاب ثم الضمير (أنتَ) العائد على المخاطب ربِّ العِزَّة سبحانه وتعالى ـ وما ذاك إلا لزيادة التأكيد على المعنى التالي مباشرة هذا فضلا عن مجيء الصفتين (السَّميع ـ والعَليم) معرَّفتين بأل، التي أفادت العهد هنا أي أنه سبحانه وتعالى منفرد بهاتين الصفتين المبالغ فيهما، فهما على وزن

(فَعِيل، ومعلوم ما في هذه الصِيغة من مبالغة واضحة في أداء المعنى ـ فهو سبحانه ـ السميع لدعائهما المخلص ـ والعليم بضمائرهما الطَّيبة الطَّاهرة التي لا تبتغي إلاَّ رضاه عزَّ وجل ـ وهكذا نلاحظ مناسبة الفاصِلة القرآنيَّة هنا لما ورد في الآية الكريمة فالسمع والعلم والمبالغة فيهما هما أنسب صفتين للدعاء والعمل الصَّالح اللذين قام بهما النَّبيَّان الكريمان دون مرأى أو مسمع من أحد سواه عزَّ وجل وبهذه الخاتِمة يكون الدعاء أرجىٰ وأدعىٰ للاستجابة والقبول منه سبحانه وتعالى.

ثم تعود الآيات مرة أخرى لذكر بقية هذا الدعاء

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[112]

نلمح هذا الاستعطاف الظاهر في تكرار لفظ رَّبنا وما فيه من تذلُّل وخضوع ورغبة في الاستجابة والقبول وكذلك في تكرار جملة (واجعلنا) وما فيها من سلاسة وعذوبة في موضعها.

أما قوله (مسلمَيْنْ لَكَ) اسم فاعل من أَسلَم... التي تعني في اللغة انقَادَ لأن الإسلام يعني الانقياد ـ أي أن صاحبه يسلم من الإباء والامتناع[113]

وإذا علمنا أن هذا هو المعنى اللغوي للفظ (أَسلَم) ـ الذي أُخِذ منه اسم الفاعل المثنَّى (مُسلِمَيْنْ) منه ـ أدركنا جمال اللُّغة في موضعها من السِّياق مع بلاغتها.

أما جمالها ففي إنسيابها بين رفيقاتها في السياق انسياب الماء العذب بين الأغصان الذي يزيد الشكل رونقاً وبهاءً..

وأما بلاغتها ففي هذا المعنى الجميل الذي تحمله اللفظة، فالنبِّيان الكريمان على قدر ما وهبهما الله من نعمة الاسلام والتمسك به يطالبان ذلك تأكيداً وزيادة للخير، يريدان طاعةً مطلقة وانقياداً ليكون الطلب دليلاً على الرَّغبة فيه وليكون الغرض إلزاماً لهما وتكليفاً ويُؤكد هذا بالجار والمجرور (لَكَ) فطلب الانقياد والطَّاعة مقيدٌ له عز وجل دون سواه. وقد قيل إن مُسْلِمَيْنْ قِرئت بصيغة المثنَّى كما هي واردة في النَّص السابق وقرئت بصيغة الجمع[114] على إرادة إدخال هاجر معهما في الدعاء.

ثم هما لا ينَسيان هنا ـ وهذه هي عادة الآباء الصالحين فكيف بالأنبياء؟ ـ لا ينسيان أن يجمعا معهما بعض ذريتهما حيث إن قوله (ومن ذريتنا) تفيد التبعيض هنا.. وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال وهو: ما الحكمة أو ما السبب في أن يُحصَر الدعاء لبعض الذريَّة وليس لهم جميعا؟!

لقد ذكر بعض المفسرين[١١٥] أن سبب هذا التخصيص أن الله تعالى قد أعلمهما أن من ذريتهما الظَّالم بقوله تعالى[١١٦] ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل إن المراد به العرب لأنهم من ذريتهما[١١٧]

وهناك سؤال آخر هو لِمَ خُصَّت الذرِّية بالدُّعاء ولا يكون عاماً للجميع...؟

نقول إن الآراء التي وردت في ذلك هي لأن الذريَّة[١١٨] أحق بالشَّفقة والحنو من غيرها لذا ذُكِرت هنا قال تعالى[١١٩]

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾

وقيل لأن أبناء الأنبياء هم الأصل فإذا صلحوا صلح فيهم غيرهم وتابعهم من بعدهم على الخيرات[١٢٠] وهذا ما نرجِّحه هنا... إذ أن العبرة بالمفهوم العام من اللفظ فليس من الضروري أن يكون المقصود ذريتهما المباشرة بل قد يُقصَد والله أعلم ـ أبناؤهما ثم الأحفاد وأبناء الاحفاد ثم من يليهم وهكذا تسري بركة الدَّعوة الكريمة إلى يوم يبعثون وقد قُدِّم هنا عطف الجار والمجرور (من ذريتنا) على قوله (أمَّة مسلمةً) مع جواز تأخيره وذلك لأهمِّية المتقدِّم واختصاصه بالدَّعوة عن الأمة[١٢١]

أما قوله:

«أمَّة مسلمة لكَ» فقد طلبا عليهما السلام أن يكون من ذريَّتهما على الخصوص هذه الأُمةَّ المسلمة.

(والأُمَّة المسلمة هي كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً وجمعها أُمَم)[١٢٢]

وقد وضع وصفاً للأمة وهو الإسلام والانقياد لِله وحدَه لاشريك له[١٢٣]

ثم يتلو ذلك مباشرة قوله :-

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

فطلبُ الرؤية هنا قصد منها الرُّؤية البَصَريَّة أو المعرفة قال الزمخشري :-

((وأرِنا) فنقول من رَأَى بمعنى أبصَرَ أو عَرِفَ ولذلك لم يتجاوز مفعولَيْن : أي وبصِّرنا متعبّداتِنا في الحج أو عرِّفناها، وقيل مذابحنا) (وقرأت بسكون الراء (أرنا) وقرأها أبوعمرو بأشمام الكسرة وقرأ عبدالله وارِهِم مناسكَهم وتُبْ عَلينا)[١٢٤]

وقيل إن المراد بالنُّسكُ العبادة واخُتصَّ بأعمال الحج[١٢٥] والمناسِك هي مواقف النُّسك وأعمالها)[١٢٦]

فالإسلام يُلزم صاحبه بالعبادة بل لا يظهر الانقياد التام لطاعة الله وتنفيذ أوامره إلا بأداء المسلم واجبه تجاه ربه عز وجل - بل وإن قصَّر لأصبح الإسلام مجرَّد كلمة تُقال ولا تطبَّق على العمل، لذا لم يُفتِ ذلك النبيَيْن الكريمَيْن، فطلب الإسلام عندهما هو قول مقرون بالعمل، يؤيد هذا ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى :- (وَأرِنَا مناسِكَنَا) حيث يقول :-

(أي علِّمنا كيفَ نعبُدك، وأينَ نعبدك وبماذا نتقرَّب إليك حتى نخدمك به كما يخدم العبد مولاه)[١٢٧]

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولما كان ثواب عملنا عائداً لنا فالحقيقة أننا بعبادة الله تعالى حق العبادة إنَّما نخدم أنفسنا ونُحسِن إليها .

ثم يأتي قوله ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ .

لقد جاء في موضوع التوبة، إنها تختلف باختلاف مقامات التائبين . . . فتوبة سائر المسلمين النَّدم على الذنب الماضي والعزم على تركه تركا نهائيا، ورد المظالم أما توبة الخواص منهم فهي رجوع عن المكروهات من خواطِر السوء في الأعمال أو التقصير في العبادات وعدم آدائها على وجه الكمال .

وتوبة ثالثة هي توبة خواص الخواص، وهؤلاء تكون توبتهم لرفع درجاتهم وللتَّرقي

في مقاماتهم، فإن كان النَّبيَّان عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصة فالمراد بها ما هو من توبة هذا القسم الثالث[١٢٨] هذا إن كان الضمير في قوله (وتُب علينا) عائداً عليهما، ويُحتمل أن يُراد بالتوبة هنا هو التثبيت عليها[١٢٩]

أمَّا إن كان لهما وللذريَّة (كان الدعاء منصرفاً لمن هو من أهل التوبة وإن كان الضَّمير قبله محذوفاً مقدَّراً فالتقدير على عصاتنا ويكون دعا بالتوبة للعصاة)[١٣٠]

ونرى أن الضمير هنا عائد إلى النبيين الكريمين والمقصود بطلب التوبة هو الرَّغبة منهما في رفع درجاتهما وارتقائهما المقامات وهذا هو شأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهي من وجه آخر تربية خُلُقية وتأديب واضح تُوجِهنا إليه آيات القرآن الكريم ليكون سلوكاً قويماً يجب أن يسلكه كل مسلم حريص على الخير لنفسه وذريته.

ثم لننظر كيف يكون التأدُّب في الدعاء وكيف يكون هذا الدعاء مختتماً بما يدعو إلى إجابته وتقبله إذ جاء في ختام هذه الآية.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

فالجملة تحتوي على كل ما يؤكد معناها ويقويه فهذا حرف التوكيد إن مقروناً بكاف الخطاب ثم يليها الضمير (أنت) ثم الصفتان المُبالغ فيهما (التوَّاب) و (الرَّحيم).

فالتوَّاب صيغة مبالغة من تاب فهي على وزن فعَّال ويقال لله عز وجل تَّواب لكثرة قبوله التَّوبة من عباده حالاً بعد حال[١٣١]

والرَّحيم هو كثير الرحمة أيضاً صيغة مبالغة على وزن فَعِيل وهي صفة يمكن أن تكون للهِ عزَّ وجل أو للبشر جاء في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٣٢]

وقد قيل إن الله تعالى رحمان الدنيا ورحيم الآخرة وذلك لأن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين وفي الآخرة يختص بالمؤمنين[١٣٣]

وقد قُدِّمت صفة (التوَّاب) على صفة (الرَّحيم) في السياق وذلك لأن (التوَّاب)

مناسبة لقوله (وتُب علينا) والرحيم مناسبة للفاصلة السابقة لها واللاحقة بها في السورة الكريمة[١٣٤]

وهكذا تستمر الآيات الكريمات في نقل مشاعر النبيين المتدفقة رحمة وعطفا على الذِّرية الصالحة . . . فالدعاء منهما كما نرى ـ ليس مجرَّد طلب عابر للإسلام والتوبة بل يتعمقان في ذلك ويسترسلان في إرادة الخير للأمة المسلمة بعدها . . . فيطلبان في ضراعة وخشوع وتذلُّل واضح في استئناف الدعاء بقولهما (ربَّنا) هذه اللَّفظة الدَّالة على تمام الرَّغبة في الاستجابة والقبول.

ثم جملة «وابعث فيهم رسولاً منهم» وهي معطوفة على ماقبلها من دعاء . . . ونلاحظ هنا تقديم متعلَّق الفعل على المفعول في الجملة إذ تقدَّم الجار والمجرور وهو قوله فيهم على قوله (رسولاً) لإرادة الاختصاص فالمطلوب أن يكون فيهم أي في الأمة المسلمة لا في غيرهم والرسول هو من تحمَّل رسالة ما . . .

فالمطلوب أن يكون هذا الرسول منهم أي من بينهم لا غريباً عليهم حتى يكون أكثر شفقة عليهم من جانب وليكون سبباً لاعتزازهم وشرفهم به من جانب آخر هذا فضلاً عن معرفتهم له بالأمانة والصِّدق إذا كان منهم[١٣٥]

وقد استجيب لدعوتهما فبعث من ذريتهما ـ النبي محمَّد صلى الله عليه وسلم (رُوي إنَّه قيل له عليه السلام قد استجيب لك وهو في آخر الزمان قال عليه السلام أنا دعوة أبي إبراهيم وبُشرى عيسى ورؤيا أمي)[١٣٦]

ثم يمضي السياق في بيان مهمة هذا الرسول المطلوب فيقول تعالى :ـ

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

فالتِّلاوة مصدر وهي (تختصُّ باتِّباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهَّم فيه ذلك وهو أخصُّ من القراءة فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة لا يُقال تلوت رقعتك وإنَّما يُقال في القرآن وفي شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه)[١٣٧]

و (الآيات) جمع آية والمقصود بها هنا كل جملة من القرآن دالَّة على حكم سواء كانت

سورة أو فُصولاً أو فصلاً من سورة وقد يقال لكلٍّ كلام منه منفصل بفصل لفظي آية وعلى هذا آيات السور التي تُعدّ بها السورة[١٣٨]

فتلاوة الآيات القرآنية هي أول مُهمّات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ لأنها أساس الأحكام ولبّ الشريعة بل هي المعجزة التي قامت عليها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

فالمعلوم أن العرب لم يأخذ ألبابهم لأوّل وهلة سوى سحر الآيات البيانّي رغم تفوّقهم في هذا المجال.

كما لايفوتنا هنا هذا الاختصاص الملموس من تقديم الجار والمجرور (عليهم) على المفعول به (آياتِك) ثم مجيء جملة (ويعلِّمهم) فالتَّعليم كما نلاحظ ـ أتى بعد التّلاوة وهذا شيء طبيعي فالتلاوة تقرع الأسماع أولا ثم يعقبها شرح ما في الآيات من أحكام أو قِصص. . .[١٣٩]

وقد أسند التعليم لضميره صلى الله عليه وسلم ـ لأنه هو القائم بمهمّة التعليم وهو الذي يفهمه أولاً ثم يتلطّف عليه الصلاة والسلام في إيصال ما فهمه إلى المتعلم يقول أبوحيّان (والتَّعليم يكون بمعنى التفهيم وحصول العلم للمتعلم ويكون بمعنى إلقاء أسباب العلم ولا يحصل به العلم ولذلك يقبل النقيضَيْن تقول علَّمته فتعلَّم فما تعلم وذلك لاختلاف المفهومَيْن من تعلَّم)[١٤٠]

أما قوله (الكتاب) فنلاحظ تعريفه بأل التي هي للعهد وهو القرآن الكريم قال تعالى:[١٤١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾

فلو كانت الكلمة مُعرَّفة بالإضافة كأن قيل مثلاً كتاب الله لكان من الممكن أن يتوارد إلى الذهن أي كتاب آخر من الكتب السَّماوية وبالتَّالي لاختلف الأمر في كون الدُّعاء لأمة محمَّد صلى الله عليه وسلم.

أمَّا الحِكمة (فهي المعرفة بالدِّين والفِقه في التأويل والفَهم للشَّريعة)[١٤٢] وقد قُدِّم علم الكِتاب على الحِكمة لأنَّه عام والحِكمة ضِمنه.

أمَّا التَّزكية في قوله (ويزكيهم) أي التطهير من الشَّرك وسائر المعاصي ـ وقد قيل إن المراد بالآيات هي ظاهر الألفاظ والكِتاب معانيها، والحِكْمة الحُكم وهي مراد الله بالخِطاب ـ ولكنَّنا نرجح التفسير الأول، ولنتأمَّل مجيء جملة (يزكِّيهم) هنا بعد قوله:

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

فقد أعطت لنا معنىً جميلاً. فالزَّكاة تعني النَّماء والزِّيادة النَّاتجة عن بركة الله عزَّ وجل، وبزكاة النَّفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقاً في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والثواب[١٤٣]

وهذه هي النَّتيجة الحتمية لمن يُتلى عليه الآيات من رسول كريم يقوم على تعليمهم مافيها من أحكام وشريعة. فهنيئاً لأمَّة دُعي لها هذا الدُّعاء المبارك.

ثم تُختَتَم الآية الكريمة بقوله تعالى:ـ

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهنا يعاودنا نفس التأكيد المعهود بالحرف إنَّ مقترنًا بكاف الخِطاب العائد على الذَّات العليَّة ثم الضَّمير أنت الذي أضفى على المعنى زيادةً في التَّأكيد وقوله: (العزيزُ الحكيم). صفتان معرَّفتان بأل القصر هنا أي قصر كل من العزَّة والحِكمةِ عليه ـ سبحانه وتعالى ـ فالعزيز هو الذي لا يعزُّ عليه شيء، والحكيم هو الذي يضع الأمور مواضعها.

هذا فضلاً عن المبالغة المستفادة من صيغة (فَعِيل) التي جاءت عليها الصفَّتان الكريمتان.

كما نلاحظ مناسبة فاصِلة الآية لما جاء في السياق، فالعزة مُناسِبة للكِتاب والشريعة لأنَّهما يعزَان من يتمسَّك بهما كما أنَّ تعليمهما والعمل بهما ليسا من الأمور السَّهلة.

والحكيم، مناسبة للحكِمة المطلوبة لهذه الأمَّة في سياق الآية الكريمة.

وهكـذا نلاحظ كيف اختُتِم الـدعاء بهاتين الصِّفتْين المناسبتيْن لما جاء في الآية الكريمة وذلك أدعى للقبول والاستجابة فقد قيل:ـ

(إذا أراد العبد أن يُستجاب له فليدعُ اللهُ بما يُناسبه من أسمائه وصفاته)[١٤٤].

ثانياً
الدعاء الوارد على لسانه عليه السلام في سورة إبراهيم

وجاء على لسان النَّبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعاء آخر في قوله تعالى[١٤٥] ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

المعنى العام:

كنَّا من قبل مع آيات تضمنت نفس هذا المعنى تقريبا ونلتقي الآن في بداية هذا

السياق الكريم مع أبي الأنبياء مرَّة أخرى وهو يدعو لمكة بالأمن والرخاء بعد أن دعا لها من قبل أن تكون مجرَّد بلد آمن وقد كانت مكاناً قفراً لا غذاء فيه ولا ماء[١٤٦]

والابتداء في هذا الدعاء بطلب الأمان إنَّما يدلُّ على أهمية هذا الأمر بالنسبة إلى غيره من سائر النِّعم والخيرات بل هو أساس تمام مصالح الدِّين والدُّنيا، فقد سُئِل أحد العلماء الأمن أفضل أم الصِّحة، فقال الأمن أفضل وذكر على ذلك دليلاً وهو أن شاة لو كُسِرَت رجلها ـ فقد تصح بعد زمان فتُقبِل على الأكل والرَّعي والشرب أمَّا إذا ربطت في موضع بحيث ترى ذئباً مربوطاً قربها، فإنَّها تُمسكِ عن الطَّعام والشَّراب خوفا حتى تموت.[١٤٧]

وهكذا يتبين لنا أهمِّية الأمن الذي طلبه النبي الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام لساكِني مكة وماذاك إلَّا لأنه أسكن زوجه وابنه فأحبَّ أن يعوِّضهما ربُّهما خيراً بعد صَبْرهما وحرمانهما منه. وقد استجاب الله تعالى لهذا الدعاء فقال عزَّ من قائل[١٤٨]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

وقال:[١٤٩]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾..

ثم يطلب عليه الصلاة والسلام لنفسه وبنيه أن يباعد ربه بينهم وبين عبادة الأصنام التي لا طائل منها إلا إضلال كثير من الناس وهم الذَّين افتتنوا بها وعبدوها... ولا ينسى أن يبرِّىء نفسه من هؤلاء فيذكر في دعائه أن من تبعه من الذريَّة فهو يستحق أن يكون في زمرته أمَّا من كان خِلاف ذلك فيُوكِل أمره إلى الله عزَّ وجل ـ إن شاء غفر لهم وأن شاء عذَّبهم كما جاء على لسان عيسى عليه السلام:[١٥٠]

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وهذا خلاف ما جاء عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما سمع قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام[١٥١]

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الآية

يُقال إن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عندما سمع ذلك (رفع يديه ثم قال. ﴿اللَّهم أمَّتي اللَّهم أمتيَّ اللَّهم أمَّتي﴾ وبكى فقال الله اذهب يا جبريل إلى محمَّد ـ وربّك أعلم ـ وسله ما يبكيك؟! فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قال فقال الله اذهب إلى محمد فقل له إنَّا سنُرضِيك في أمَتِك ولا نسؤك)[١٥٢]

ثمَّ ها هو ذا الخليل إبراهيم عليه السلام يعرض مشكلته في رجاء وتضرُّع وتذلُّل يعرضها ـ والله سبحانه وتعالى أعلم بها ـ وهي إنه ترك زوجه وابنه بهذا الوادي القفر الذي أفضل مافيه أنه عند بيت الله المحرَّم ـ وذلك لهدف إقامتهم الصلاة وعبادة الله عزَّ وجل وحتى يتمكَّنوا من ذلك، فقد دعا لهم: أن يجعل بعض الناس يدخلون مكة ويحجُّون إليها كما دعا لهم بتوفير الرِّزق والثَّمرات ليعينهم ذلك على أداء عبادتهم في يسر وأمان من الجوع والفقر وقد استجاب عِز وجل لِذلك فقال سبحانه: [١٥٣]

﴿ . أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وتستمر مناجاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لربّه عزَّ وجل ـ فيذكر في مناجاته أنَّ من يدعوه هذا الدعاء يعلم ما نخفي من أنفسنا ويتبع ذلك ما يخفى من حاله. من وجد وفُرقه بينه وبين ابنه، وما نُعلِن من قول أو عَمل ويتبع ذلك ماظهر من قوله بينه وبين هاجر رضي الله عنها. عندما سألته إلى من تكلِنا؟[١٥٤] لأن الأصل هنا مطلق الاخفاء والاعلان ـ لأنه ـ سبحانه ـ يعلم السرَّ وأخفى وما تَسقط من ورقة ولا حبَّة في الأرض ولا في السماء إلَّا يعلمها ـ سبحانه ـ مدبِّر الأمور فكيف لا يعلمها؟!

ثم يأتي قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

وفي هذا شكر واعتراف بالنِّعمة التي يعيشها وقت ذلك الدعاء فإنجاب البنين نعمة كُبرى في ذاتها فكيف إذا كانت هذه النِّعمة مع سن اليأس والشَّيخوخة فقد قيل (لمَّا وُلِد اسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة، ولمَّا وُلِد إسحاق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة. وقيل وُلِدَ له إسماعيل لأربع وستين وَوُلِدَ إسحاق لِتسعين سنة، وعن سعيد بن جابر، لم يولَد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة...)[١٥٥]

هذا وقد اختلف في كون هذا الدعاء متصلا في وقت واحد وهو يوم أسكن هاجر وابنه اسماعيل مكة لأنَّه لم يرزق إسحاق إلَّا بعد مُضي أعوام كثيرة أو غير متصلة، ولكننا نأخذ الخلاصة من ذلك وهي، سواء كان هذا الدعاء في وقت واحد أو على فترات فهو دعاء سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاله في لحظة من لحظات مناجاته لربِّه عز وجل... وهو سعيد باستجابة ربِّه له وإحساسه العميق بتلك الاستجابة فيقول (إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاء) ثم يعود إلى ما بدأ به من التأكيد على طلب الاستقامة والطاعة فيطلب أن يكون هو من مقيمي الصلاة ومن ذريته كذلك من يقيمها، ثم لا يفوته ـ عليه السلام ـ بعد كل ذلك طلب المغفرة له ولوالديه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد قيل إن أمّه كانت مؤمنة، فطلب ذلك بالإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين عداوته لِلَّه عزَّ وجل[١٥٦].

مناسبته للسيِّاق:

ذكر صاحب «النَّظم الغني في القرآن أن هذا الدعاء ورد ضمن آيات السورة المحتوية على ترهيب المشركين وترغيبهم[١٥٧]

فإذا نظرنا إلى السياق قبلها علمنا أنه تعجَّب من الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً وجعلوا لله أنداداً وهم قريش ومن تابعهم من العرب المُتخِذين آلهة من دون الله وكان من نعمة الله عليهم إسكانه إياهم عند حرمه وتتبع ذلك وناسب ذلك ذكر أصلهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي دعا لهم أن يجعل مكة آمنة وأن يباعده وبنيه من عبادة الأصنام

التي كانت سائدة آنذاك وأنَّه ما أسكن ذرِّيته ذلك المكان إلا ليعبدوا الله وحده. . . وذلك عن طريق الصلاة أولاً التي هي أوَّل العبادات وأشرفها وما ذاك إلا لينظروا في دين أبيهم المخالف لما ارتكبوه من قبل في عبادة الأصنام وما شابهها وليرجعوا عن ذلك[١٥٨]

أمَّا مناسبة الآيات لما بعدها فنلاحظ أنَّ السياق بعدها ذكر علم الله عن أفعال الظالمين وعدم غفلته عن تصرُّفاتهم وإنَّما يؤخرهم إلى أجل مسمًّى ثم يُنزل بهم العذاب اللائق بمثلهم، ولا شكَّ أن عبادة الأصنام بعد هداية الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم إلى طريق الحقِّ إنَّما هي ظلم للنَّفس وأي ظلم؟!

الدِّراسة والتحليل البياني:

لنعدُ هنا إلى نصِّ الدعاء آية آية قال تعالى[١٥٩]

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

في بداية الآية إيجاز حذف في الجملة في قوله (وإذْ قال إبراهيم إذ حُذِف هنا الفعل وفاعله وتقدير الكلام (أي اذكر ذلك الوقت أو المقصود تذكير ما وقع فيه على منهج ما قيل في أمثاله)[١٦٠]

ثم تكرَّر الدعاء هنا مُستفتحاً بلفظ (ربِّ) الذي يدل على تذلُّل الدَّاعي وخشوعه من رغبته الأكيدة في الاستجابة من المَدعو عِزَّ وجل وما قيل في (اجعل) قبل ذلك يقال هنا إذ أنها أبلغ وأكثر رقَّة وسلاسة في السياق من جملة (صَيِّر) مثلاً رغم تساويهما في المعنى.

أمَّا قوله (هذا البلد آمنا) فالملاحظ هنا مجيء اللفظتين معرَّفتين بآل مع خلوِّهما من هذا التَّعريف في الآية الواردة في سورة البقرة[١٦١] وما ذاك إلَّا لأن الدُّعاء أولاً كان لمكة قبل أن تكون من جملة البلاد إذ كانت مُجرَّد وادٍ قفر خالٍ من كل شيء فطلب عليه الصلاة والسلام البلديَّة لَها أولا لتتمكن هاجر وابنها عليه الصَّلاة والسلام من سكنى المكان والبقاء فيه، أمَّا وقد استقر الأمر وقد أصبحت بلداً كسائر البلاد آهلاً بالناس عامِراً بما فيه فكان من الطبيعي بل من حكمة النبي الكريم أن يدعو لها بالأمن إذ لا

قيمة للحياة في بلدٍ خالٍ من الأمن[١٦٢] وبهذا يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد مهَّد السَّبيل للعابد في هذا البلد أن يتمكَّن من عبادته بلا خوف أو تهديد[١٦٣] من عدوٍّ ولا أدلَّ على ذلك من عطفه على هذا الطَّلب طلباً آخر وهو أن يجُنبه وبَنِيه عِبادة الأصنام.

ولا يفوتنا هنا الاشارة إلى لفظ (آمن) وهي صيغة اسم فاعل استعملت للنَّسب أي أمنٍ مثل: لابن وتامِر والمعنى أن يكون أهله في أمن فالذي يوصف بالأمن حقيقة هم أهلُ البَلَد لا البلد نفسه[١٦٤]

وقد يكون في الأسلوب مجازاً عقلياً وعلاقته هنا المكانيَّة كقولنا نهرٌ جارٍ والمراد جريان الماء لا النَّهر.

أما قوله (واجْنُبْني وبنيَّ أَن نَعبُدَ الأصنامَ)

فنلاحظ أولاً عطف هذه الجملة على ماقبلها بواو العطف التي تفيد مساواة المعطوف بالمعطوف عليه في الحكم... فالنبيُّ الجليل ـ عليه الصلاة والسلام لا يُفرِّق بين الأمن المطلوب للبَلد الكريم مكة وبين إخلاص العبادة لله عزَّ وجل إذ أن وجود الأمن أمر أساسي وضروري لانجاز أي عمل كان، فكيف بمن يتجَّه بالعبادة إلى الله بقلبه ومشاعره وكل جوارحه؟! ألا نجد ذلك منصوصاً عليه في القرآن الكريم نفسه؟ إذ قال تعالى: [١٦٦]

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

وهو القائل عزَّ وجل في ضرورة الهجرة إذا لم يتوفر للعبد الظروف المناسبة لعبادته: [١٦٧]

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

أمَّا جملة (واجُنْبني) فأصلها من الثلاثي (جنب) والذي جاء عن مادته في مقاييس اللغة أن (الجيم والنون والباء أصلان متقاربان أحدهما الناحية والآخر البعد)[١٦٨]

أما الناحية فقيل إن هذا من ذلك الجناب أي الناحية . أو قعد فلان جنبه إذ اعتزل الناس ومنها الجنب للإنسان .

وأما الأصل الآخر وهو البُعد ـ فمنه الجَنَابَة[١٦٩]

وذكر الرَّاغب في مفرداته نفس المعنيين السابقين[١٧٠]

والمعنى المراد هنا هو المعنى الثاني ـ والله أعلم ـ

وهو البعد إذ أنَّ النبي الكريم طلب ربَّه عز وجلِ أن يُبعده وبَنيه عن عبادة الأصنام .

ونظيره من القرآن قوله تعالى : [١٧١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قال الرَّاغب وذلك أبلغ هنا من قولهم أتركوه .

ونرى أن البلاغة أيضا في وجود جملة (اجُنْبني) هنا عن غيرها كجملة (باعدَ بَيني وبين الأصنام) لأن المُباعدة قد تعني بعد المسافة بينه وبين مكان الأصنام أو تحتمل معنى التكُّلف والمُعاناة في هذه المباعدة .

أما قوله (اجنبني) فلا تعطي سوى معنى (أن يقوده عز وجل من جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفَّية)[١٧٢]

ويؤيِّد هذا الرأي ما ورد في كتب التفسير من استجابة الله عز وجل لهذه الدَّعوة من سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فذكر أبوحبان ذلك بقوله :ـ

(وإجابة الله تعالى تجعل الحرم آمنًا ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصُلبه صنماً)[١٧٣]

وقد سُئِل سُفيان بن عيينه كيف عبدَت العرب الأصنام؟

فقـــال :ـ

(ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً وكانوا ثمانية إنَّما كانت لهم حجارة ينصبونها

ويقولون حجر فحيث مانصبوا حجراً فهو بمعنى البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار)[١٧٣]

وجملة (اجنبني) هنا فيها ثلاث لغات :-

(جَنَبَه واجْنُبْه وجَنِّبْه) قال الفراء :-

أهل الحجاز يقول جَنَبَني يَجْنُبْني بالتخفيف، وأهل نجد يقولون جنِّبْني شرَّه واجْنُبْني شرَّه، وأصله جَعل الشَّيء، عن غيره على جانب وناحية)[١٧٤] وقيل إن لغة أهلَ الحجاز بالتشديد أي (جنِّبني) وهذا أرجح عندنا وهو الأشهر عند المفسرين[١٧٤]

وقوله و (بَنِيَّ) معطوفة على ياء المتكلم في قوله واجنُبني وهذا أعطى المساواة في الدعاء بين المعطَوف والمعطوف عليه وذلك لأهمية صلاح الأبناء عند الوالد.

وقوله (أن نعبد الأصنام) هي مصدر مؤول في محل نصب مفعول ثانٍ لـ (أجنب) - أي جنبني وبني عبادة الأصنام.

أما من يطلب عليه الصلاة والسلام تجنب عبادة الأصنام فقد قصد بها كل ما يُعبد من دون الله عز وجل لأن الصنم وغيره سواء في ذلك[١٧٥]

ولا يكتفي النبي الكريم بهذا الدعاء بل يسترسل في السياق في بيان تذلُّله وخضوعه التَّام وحاجته المُلحَّة إلى الإجابة من ربِّه وذلك يبدو في تكرار لفظ (ربِّ) في بداية كل آية تتضمن دعاءً جديداً وهنا يتبين عليه الصلاة واليلام العِّلة الحقيقية لهذه الدَّعوة وربُك عزَّ وجلِ أعلم بها إنما هي من باب الرغبة في بسط الحديث وإطالته فهو يناجي ربَّه في إلحاح ومن ذا الذي يفعل ذلك إنه أبوالأنبياء إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - في لحظة من لحظات تجلِّيه وعبادته. . . يقول تعالى على لسانه -

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

ونلاحظ هنا تأنيث الضمير في قوله أضللن العائد على الأصنام (لأنه جمع مالا يعقل فيخبر عنه إخبار المؤنث كما يقال الأجذاع انكسرت) أما إذا أخبر عنه إخبار جمع المذَّكر العاقل فقيل فقد ضلوا كثيراً، فتكون في هذه الحالة مجاز»[١٧٦]

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى استعمال جُملة (أَضلَلْنَ) مع الأصنام فهي جماد والجماد ليس له فعل على الاطلاق. . . فجاءت في السياق لتدلَّ على الإضلال الذي حدث لمتَّبعِيها عند عبادتها وهذا يُعتبر في علم البلاغة من المجاز العقلي وعلاقته هنا السَّببيَّة لأنَّها سبب في الإضلال[١٧٧] كما أن جملة (أَضْلَلْنَ) هنا أكثر دقة في السياق وأداء للمعنى المراد من (أَغْوَيْنَ) مثلا لأن الضلال يختلف عن الغى، فالضلال، هو العُدُول عن الطريق المستقيم سواء كان عمداً أو سهواً قليلاً أو كثيراً[١٧٨]

والإضلال ضربان :ـ

أحدهما : أن يكون سببه الضَّلال مثل أَضْلَلْتُ الدَّابة أي ضلَّتْ عنِّي.

وثانيهما : أن يكون الإضلال سبباً للضَّلال وهو كأن يُزَيِّن للإنسان الباطلَ ليضِلَّ[١٧٩]

والمعنى الثَّاني هو المراد هنا.

أما الغَىَ : (فهو جهل من اعتقاد فاسد)[١٨٠]

كقوله تعالى :[١٨١]

﴿ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ ﴾

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ولهذا الفرق اللُّغوي كانت جملت (أَضْلَلنَّ) أكثر دقة في موضعها من السياق عن جملة (أَغْوَيْنَ) مَثَلاً والله ـ سبحانه وتعالى أعلم.

كما يأتي لفظ (كثيراً) هنا منكراً ليدل على العُموميَّة فيه دون تخصيص لجماعة معلومة ثم يأتي قوله تعالى

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قصد بالتبعية هنا أي السَّير على مِلَّته وأن يكون التَّابع حنيفاً مُسلِماً[١٨٢] ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا أدلَّ على ذلك من تأكيد الخبر بإن المؤكدة في قوله تعالى :ـ

«فَإنَّهُ مِنِّي» ولنتأمَّل هنا جَلالَ التَّعبير إضافةً إلى جماله في قوله (مِنِّي).

إنَّ الجلاَل يكمُن في كَون التَّابع بعضاً من متبوعه لفرط اختصاصه به .

ولا يخفى على أحد الجمال في سلاسة التَّعبير وحسن الصِّياغة ولطف الوَقع .

أما قوله : ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

فالواو هنا عاطفة والمعلوم في العطف أن يتساوىٰ المعطوف مع المعطوف عليه في الحكم . . . ولكن كيف نستطيع هنا أن نساوي بين المتعاطِفين في الحكم؟!

لاشكَّ أن ذلك لن يكون إلاّ بكرم الله وغفرانه ورحمته وليس لأحد حق في الحكم على العاصي إلاَّ ربّ العَّزة ـ سبحانه وتعالى ـ، لذا كان التأكيد على هذا المعنى بليغاً في ابتداء الجُملة الخبريَّة[١٨٣] بإن المؤكَّدة في قوله تعالى :ـ

فَإنَّك غَفُورٌ رَحِيمٌ، وينبغي ألاَّ نُغْفِل هنا صيغة المبالغة في لفظتي (غَفُور)، (رَحِيم) .

فالمبالغة هنا يطلبها المعنى والمقام طلباً يحتِّم وجودهما فيه .

ثم لنتأمَّل قوله تعالى :ـ

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ . . .﴾

ثم يعيد السياق الكريم نفس اللفظ الذي آثر سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستفتح به كل دعوة من دعائه وهو قوله (ربَّنا) هذه اللفظة التي تنقل إلينا مزيداً بل فَيضاً من مشاعر النَّبي الكريم المتدفِّقة ساعة الدعاء وهنا كما نلاحظ إضافتها لضمير جمع المتكلِّمين (نا) مع أنَّ ما جاء بعدها ياء المتكلِّم الدالَّة على أنَّ الدعاء من سيِّدنا إبراهيم وحده عليه الصلاة والسلام .

فنرى أن في الأولى إقراراً منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالربوبيَّة الكاملة من الله ـ عزَّ وجل ـ لجميع خلقه الَّذين تكفَّل بمعاشهم وجميع أمور حياتهم، وما دام الأمر كذلك[١٨٤] فإن دعوة واحدة منه ـ عليه السلام ـ هي أدعى بالاستجابة والقبول، وهذا ماتوحيه لنا ياء المتكلِّم في قوله (إنِّي)، هذا فضلاً عن ما نقله لنا من إحساسه عليه الصلاة والسلام بالضَّعف أمام قُدرة ربِّ العالمين ـ سبحانه وتعالى .

ثم تأتي جملة (أسكنتُ) هنا لتنقل لنا معنى دقيقاً أراده النبي الكريم من ترك زوجه وولده هناك ـ فهو لم يتركهما عبثاً أو مؤقتاً حتى تهدأ ثائرة زوجه سارة ثم يعود لأخذهما . . بل وضعهما بنيَّة السَّكن بهذا الوادي القفر وكأنَّه هنا يتمنى على اللَّه عِزَّ وجلِ في دعوته أن يكون هذا الوادي فيما بعد صالحاً للسَّكن ويؤيِّد ما ذهبنا إليه هنا ما جاء بعد ذلك في نفس الآية وهو قوله تعالى : (١٨٥)

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

أمَّا قوله تعالى «مِنْ ذُريتي» فقيل :

إنَّ (مِنْ) هنا للتَّبعيض(١٨٦) وقيل إنها زائدة ـ والرأي الأول أرجح لأنه أسكن إسماعيل عليه السلام وهو بعض ولده .

أما قوله ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ فالملاحظ أن الوادي (وهو مكة المكرمة) هنا وصف بخلوِّ الزَّرع منه مع أنه كان خالياً من الماء فقيل في ذلك رأيان .

أولهما: إنه عليه الصلاة والسلام علم من ربِّه بوجود الماء فيه فيما بعد لذا لم يذكر في الدعاء .

وثانيهما: أو أن يكون انتفاء وجود الزَّرع يعني انتفاء وجود الماء أيضاً(١٨٧)

وأضاف الزمخشري رأيا جديداً هنا هو إن المراد (لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله تعالى : قرآناً عربياً غير ذي عِوجَ بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج وما فيه إلَّا الاستقامة لاغير)(١٨٨) ونرِّجح هُنا الرأي الثَّاني لأبي حبَّان .

ونلتقي بعد ذلك بجمال الموقع الذي اختير لهذا السَّكن وهو (عِندَ بيتِكَ المُحرَّم) فقيل (سُمِّيَ بذلك لأنَّ الله حرَّم التعرُّض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه ، أو لأنَّه لم يَزل مُمنَعَّاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء (المُحرَّم الذي حقه أن يُجْتَنَب أو لأنَّه محرَّم عظيم الحُرمة لا يحلُّ انتهاكها أو لأنَّه حُرِّم على الطُّوفان ، أي مُنع منه ، كما سمي عتيقاً لأنَّه أعتق منه فلم يستول عليه)(١٨٩)

ومهما تكن أسباب هذه التَّسمية الكريمة للمكان المبارك فإنَّنا نقف عند المعنى

العام لقوله (عِندَ بَيْتِكَ المحرَّم) وهو أنه عليه الصلاة والسلام لم ينظر في اختياره للمكان نواحي مادِّية على الاطلاق بل نظر إلى الجانب الرُّوحي والمعنويّ فقط ولعلَّ الله يجعل في ذلك الاختيار سبباً في رفع شأنهم وإعلاء مكانتهم . . . فها هو ذا لاينسى إتباع ذلك ببيان الغاية والعلَّة من هذا السَّكن في هذا المكان فيقول «رَبَّنا ليُقيموا الصَّلاةَ» فاللام هنا لو أُخذت على أنها للتعليل أعطتنا المعنى الذَّي ذكره الزمخشري في قوله :

اللَّام متعلَّقة بأسكنت أي ما أسكنهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفع ومرتزق إلَّا ليُقيموا الصلاة عند بيتك المحرَّم . . .)[١٩٠] الخ .

أمَّا إذا كانت اللام لام الأمر كما ذكر الألوسي فيكون الفعل بعدها مجزوماً . ويكون المراد هو الدُّعاء لهم بإقامة الصَّلاة كأنَّه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفِّقهم لها[١٩١]

أما ضمير الجمع في قوله (ليُقيموا) فقيل لأنَّ الله تعالى أعلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن ولده إسماعيل عليه السلام سيعقب هنالك ويكون له نسل[١٩٢]

وُخصَّت الصَّلاة هنا من بين سائر العبادات لأنَّها أساس كل العبادات وأفضلها ولأنَّها سبب لكل خير بعد ذلك[١٩٣]

ثم جاء قوله تعال ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ . . ﴾

ليدلَّ على أن إقامة الصَّلاة والاهتمام بالعبادات إنَّما هو سبب في كل خير بعد ذلك الفاء في قوله (فاجعل) سببيَّه تدل على أن إقامة الصلاة في ذلك المكان المبارك إنَّما هو سبب في جعل أفواج الناس تقصدهم من كل مكان فلفظ (أفئدة) جمع لفؤاد والفؤاد هو القلب فعبَّر بالجزء عن الكل[١٩٤] وعلى هذا يكون مجازاً مُرسلاً علاقته الجزئية .

وقد استعمل الفؤاد هنا بدلاً من الشخص نفسه لأنَّه أشرف جزء وأهمه في الإنسان ومثيله ما جاء في قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١٩٥]

(. . . . ألا إنْ في الجَسد مُضغة إذ صُلحت صُلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب) .

وَسُمِّي القلب فؤاداً لانفاده. مأخوذ من فأد ومنه المُفْتَأد وهو مستوقد النَّار حيث يُشوى اللَّحم[١٩٦]

وقيل هي جمع «وَفْد» وأصلها أوْفِدة فقدِّمت الفاء، وقُلِبَت الواو ياء فكأنَّه قال واجعل وفوداً من النَّاس تَهوى إليهم[١٩٧]

وقرئت (آفدة) على وزن عَاقِدة وجهان :-

(أحدهما: أن يكون من القلب كقولك آدر في أدؤر والثاني أن يكون اسم فاعله من أَفَدَت إذا عَجِلَت: أي جماعة وجماعات يرتحلون إليهم ويَعجلون نحوهم)[١٩٨]

وقُرِيء أفِدَة وفي هذا وجهان أيضاً أحدهما أن تُطرح الهمزة للتخفيف وأن كان الوجه أن تُخَفَّف بإخراجها بَين بَيْن.

ثانيهما: أن يكون من أفد)[١٩٩]

أمَّا (مِن) في قوله (مِنَ النَّاس) فقيل هي للتبعيض أي اجعل أفئدة بعض النَّاس مائِلة إليهم، ولو قيل أفئدة النَّاس لازدحمت عليه فارس والروم والتُرك والهِند وقال سعيد بن جبير لحجَّت إليه اليهود والنَّصارى والمجوس ولكِّنه قال (أفئدة من النَّاس)[٢٠٠]

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقيل من زائدة ولا يَلزم ذلك جمع اليهود والنَّصارى والمجوس لأنَّ المطلوب توجيه قلوب النَّاس إليهم للسكون والاطمئنان إليهم لا توجيهها إلى الحج فقط ولو كان هذا المراد لقيل مثلاً تَهوي إليه (أي إلى البيت)[٢٠١]

وأجاز الزمخشري أن تكون (مِن) للابتداء كقولك القلب مِنِّي سقيم تريد قلبي، فكأنَه قيل أفئدة ناس، قال الزمخشري :-

(وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لأنَّها في الآية نكِرة ليتناول بعض الأفئدة)[٢٠٢]

أما جملة (تَهوى إليهم) فهي أبلغ من سواها هنا فلم يأتِ مثلاً قوله، تُقْبِل عليهم لأنَّ تهوي إليهم مأخوذة من هَوَى يَهْوَى أي إذا أحَبَّ وتضمَّن أيضاً معنى السُّرعة في

ذلك أي تُسرِع إليهم وتَطير نحوهم شوقاً[٢٠٣]

ونرى إن في هذا التعبير استعارة لأنَّه يُقَال هَوَت النَّاقة تَهْوِي هوياً فهي هاوية، إذا عَدَت عدواً شديداً كأنَّها تَهوى في بئر ويُقال هَوَت الصَّخرة من الجبل بمعنى اندفعت من القِمَّة إلى الحضيض بسبب السَّيل.

واستعمالها هنا مع أفئدة النَّاس استعارة مكنيَّة[٢٠٤]

وهذه الدَّقة في استعمال جملة (تَهْوِي إليهم)، إنَّما تدلُّ على رغبة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأكيدة في ضرورة إسراع النَّاس إليهم واستئناسهم بهم وأنَّ الحياة تدخل على المتروك تَستبدِل بوَحشة الوادي أنساً واستيطاناً ومَودةً بين النَّاس وبين من سكن فيه من ذريَّته ولخبرته التَّامَّة وعلمه القوي إن هذا لن يكون إلَّا باسباب مهيَّأة وظروف معيَّنة فقد اتبع ذلك بقوله:ـ

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾

فالرزق شيء أساسي لاستمرار الحياة وتطورها سواء كان ذلك للإنسان أو لغيره لذا يَطلب الرزق من الثَّمرات ولم يحدِّد ليكون العطاء متنوعاً والفضل كبيراً ليُناسب ذلك التنوعُ اختلاف أهواء النَّاس ورغباتهم وليناسب ذلك الفضل الكبير اختلاف العصور ومتطلَّبات الحياة لذا قيل: (من الثَّمرات) ولم يُحَدد نوعاً أو أنواعاً معيَّنة وهذا ماحدث بالفعل في مكة بل هذا ماشهدناه على الحقيقة فيها فهذه البلدة على صغرها وقلَة الأمطار فيها وطبيعة أرضها الجبليَّة فإن المُقيم فيها وغير المُقيم لايجد صعوبة في الحصول على أي نوع من الثمر في أي فصل من فصول السنة[٢٠٥]، هذا فضلاً عما قد يكون فيها من الخيرات الأخرى التي لم تُعرَف بعد... ولاشكَّ أن جني الخيرات هو من أفضل الثَّمرات وأشهاها.

ثم لنتأمَّل هنا فاصلة الآية الكريمة في قوله ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ إذ إنَّها توضِّح الغاية والهدف من كل ما جاء في الآية الكريمة من دعوات بالخير. فالنبِّي الكريم عليه الصلاة والسلام لاينسى أن يربط النعمة بالمُنعِم وأن يعيد الفضل إلى المُتفضل الأوَّل عِزَّ وجل... فمجرَّد دعائه بالخير يذكِّره ذلك بشكر المُعطي وهذا هو شأن الصَّالحين

جميعاً فكيف بمن هو أبو الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، إنه يتمنى على الله تعالى بل يرجو أن يكون هذا العطاء منه والمِنَّة سبباً في شكر المُنعِم عليهم وهو بذلك لا يبتغي إلاَّ وجه الله تعالى وكسب رضاه ثم زيادة ذلك الخير لساكني الحرم فشكر النِّعمة يزيدها ويحفظها من السوء. قال تعالى:[٢٠٦]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

وها نحن أولاً نصل مع السياق الكريم إلى قمة التدفُّق العاطفي في نفس النبي الجليل أثناء الدعاء في قوله تعالى[٢٠٧]

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

يبدو هذا التدفُّق الروحاني واضح في تكرار لفظ (رَبَّنا) في بداية كل آية ثمَّ في إن المؤكِّدة هنا والمُقترنة بكاف الخطاب له عزَّ وجل ـ هذا فضلاً عن ماتُوحيه الجملتان (مانُخفي وما نُعْلِن) المعطوفتان على بعضهما والتي قُدِّمت فيهما جملة (مانُخْفِي) على (مَا نُعلن) وذلك لعِلمه عزَّ وجل بالسرِّ قبل العلَن ولأهميَّة العِلم بالخفاء قبل الجَهر عند المتكلِّم فهي صفة من صفاته عزَّ وجل وحده والتي لايشاركه فيها غيره...

أما الزمخشري فيقول في ذلك:

(تَعلم السرَّ كما تعلم العلَن علماً لاتفاوت فيه، لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك)[٢٠٨]

وقيل (قدَّم ما نُخفي على ما نُعلِن للدَّلالة على أنَّهما مستويان في علم الله سبحانه، وظاهر النَّظم القرآني عموم كل مالا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك)[٢٠٩]

ولا ننسى هنا ما أضفَته المُطابقة[٢١٠] على السياق من جمال التعبير في قوله (مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنْ)

وفي قوله ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تذليل على ما قبله[٢١١].

و(مِنْ) في قوله (مِنْ شَيءٍ) للاستغراق.

وذكرت هنا (. . في الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ) للتَّعميم بعد التَّخصيص ولأنهما هما المشاهدتان لدى العباد[٢١٢]

وقد قيل إن هذا من كلام الله تعالى تصديقاً لِما قاله النبي إبراهيم عليه السلام[٢١٣].

ثم قال تعالى:-

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾

وهنا لا ينسى النَّبي الكريم أن يحمد الله تعالى ـ وسط هذه الدعوات الكثيرات ـ لاينسى أن يحمده سبحانه على النِّعمة العظمى التي غمره بها وهي نعمة الإنجاب على كِبَر السِّن[٢١٤] وما ذاك إلا لثقته الكبرى باستجابة الله دعاءه قيل ذلك في ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢١٥] تظهر هذه الثِّقة والتَّأكيد في قوله ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

فالآية كما يبدو تبدأ بإن المؤكِّدة لما بعدها ثم اقتران خبرها بلام الابتداء وهي مؤكدٌ آخر من مؤكدات الجملة.

وهو هنا يؤكد استجابة الله دعاءه السابق ويحمده عليه ليكون في تصرُّفه هذا قدوة طيِّبة لغيره وفي هذا تربية وتوجيه لكل سامع وقارىء للقرآن. . . ألاّ يقنط من رحمة الله عِزَّ وجل وأن يعلم علماً أكيداً لا مراء فيه باستجابة الله للدُّعاء مهما عظم فالاستجابة على قدر المُجيب عز وجلّ ـ دلَّ على ذلك صيغة المبالغة في قوله (لَسَمِيعُ الدُّعاء)

ثم يعود السياق مرة أخرى لبيان أهمية إقامة الصلاة واحتفاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بها فيقول تعالى:-

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾

ويكرِّر هنا الاستعطاف والتذلل للّه عزَّ وجل للفظةِ (ربِّ) هذه اللفظة التي تُزيِّن بداية كل آية وكأنها مِصباح يُضيء الطَّريق أو يُتيح الفرصة للمُضي ـ فيما سيردِ من دُعاء بعد ذلك. . . إنَّه يطلب من المولى عزَّ وجل. أن يكون مقيما للصَّلاة رغم كونه نبياً.

وهـذا منهج تربوي عالٍ ولاشك فالمؤمن يجب ألا يغترَّ بنفسه ويزكِّيها بل عليه أن يتحـرَّى الـدِّقَّـة والصَّواب في كل ـ أعماله وأقواله فهذا النَّبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام يطلب أيضا نفس الطَّلب لبعض ذريته في قوله (وَمِن ذُرِّيَّتِي) لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي[٢١٦]

ثم يكرِّر التضرُّع والتَّذلُّل ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي دعائي وقد قيل عبادتي أي كلّ عبادته . . . . من دُعاء وَصلاة وغيرهما . . .

ثمَّ لا ينسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُضيف إلى دعائه ذلك ما يُحبِّ لآخرته كما طلب لدنياه فيقول في نهاية دعائه :ـ

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

فهو يطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين[٢١٧] يطلب هذا ليوم القيامة في قوله ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ والمقصود يوم يقوم النَّاس للحساب[٢١٨]

وعلى هذا يكون في السياق إيجاز حَذفٍ في المفرد إذا حُذِف هنا المُسند إليه .

كما أنَّ ورود القول في السياق على هذا التَّركيب فيه استعارة مكنِّية فالحِساب لايقوم وإنما الناس هم القائمون للحساب .

وهكـذا ينتهي هذا المشهـد العـظيم مشهد النَّبي الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن يفعم قلوبنا وأنفسنا بوحدانية لايمكن أن يوفرها لنا سوىٰ أسلوب القرآن الكريم ذلك الأسلوب الذي احتوى على جرس قرآني نَديّ عذب فضلاً عن رفعة المعنى .

تعقيب ومقارنة :-

بالعودة إلى آيات الدعاء الواردة في سورة البقرة والأخرى الواردة في سورة إبراهيم وجدنا بعض التشابه والاختلاف بين كل منهما في بعض الألفاظ والعبارات، وذلك عائد إلى ارتباط العبارة بالمقام أو بالمقصد الذي وردت من أجله.

فعلى سبيل المثال جاء في سورة البقرة[٢١٩]

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

فيأتي التنكير هنا في لفظ (بَلَداً) ليفيد طالب أن يتحوَّل هذا المكان القفر إلى بلد أولاً - يسكنه النَّاس - ثم يكون آمناً بالدَّرجة الثَّانية وهذه دِقَّة ظاهرة في أداة المعنى[٢٢٠].

وهذا خلاف ما جاء في سورة إبراهيم[٢٢١]:

فالمطلوب هنا الأمن بعد أن صار بلداً معهوداً يسكنه أهله بدليل ماجاء بعدها ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[٢٢٢]

لأن توحيد الله بالعبادة وإفرادها له عزَّ وجل من أهم الأسباب التي توفِّر الأمن في مكان ما فإذا رضي الله - سبحانه - عن عبده بتوحيده له أسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة وأعانة على صعوبات الحياة ونوائب الدَّهر، وإذا أعين العبد على ذلك شعر بالرِّضا والأمن والسَّعادة في نفسه وبلده وهي غاية مايتمناه الإنسان في دنياه.

كذلك من اختلاف العبارات في الآيات بين السورتين.. قوله تعالى في سورة البقرة[٢٢٣]

﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

أما في سورة إبراهيم[٢٢٤]

﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

ففي سورة البقرة نلاحظ مجيء قوله تعالى :-

﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ **بعد قوله تعالى :ـ**

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾

فإذا تذكَّرنا ما قيل هنا في أن المطلوب أولاً هوَ طلب كون المكان بلداً أولاً ثم الأمن ثانياً[٢٢٥]

علمنا مايتبع الأمن في بلد ما من أمور، كاستقرار النَّاس به وحبِّهم له وارتباطهم بكلِّ ما فيه حتى يصبحوا من أهله وساكنيه فإذا اصبحوا كذلك كان لابد من طلب الرزق والثَّمرات لأهل هذا البلد الآمن.

أما في سورة إبراهيم فجاء قوله تعالى[٢٢٦]

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بعد قوله تعالى[٢٢٧]

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

فطلب الرزق والثَّمرات هنا للزَّوجة والابن ولمن يهوى إليهم من الجماعات جماعة تلو أخرى قبل أن يصبح المكان بلداً معلوماً له أهله وساكنوه لذا لم يأت ذكر الأهل هنا واكتفى بالضمير العائد على الزوجة والابن والقوافل المقبلة عليهم والمرتحلة عنهم بين حين وآخر لأن المكان قفر ولا يصلح للإقامة والسَّكن.

تذييـــــل

لايفوتنا أن نذكر هنا العِبرة من هذا الدعاء الذي ورد على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ العبرة تكمن في جانبين، جانب عام، وآخر خاص، أمَّا العام فعلى كل مؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى في كل أموره مهما قلَّت أو عظمْت ومهما كانت مكانة ذلك المؤمن.

وأمَّا الجانب الخاص من هذه العبرة فيكمن في ترداد لفظ (رَّبنا) في كل فاتحة دعاء لاسَيما وأن هذا اللَّفظ يدلُ على الخضوع والتذلُلُ التَّام كما أنه يُشعر الدَّاعي باستجابة المدعو ودنوِّه منه وفي هذا توجيه رائد من النبي الكريم إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمؤمنين بعده لاسيَّما وأنَّ قضية الرُّبوبية هي التي كانت موضع الجدل وبخاصة في الجاهليَّة العربية يقول سيد قطب في ذلك:

«إنه لايذكر الله ـ سبحانه ـ بصفة الألوهية، إنَّما يذكره بصفة الربوبيَّة فالألوهية قلَّما كانت موضع جدال في معظم الجاهليَّات ـ وبخاصة في الجاهلية العربية ـ إنَّما الذي كان موضع جدل هو قضية الرُّبوبيَّة، قضية الدَّينونة في واقع الحياة الأرضية. وهي القضيَّة العمليَّة الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان. والتي هي مفرق الطَّريق بين الإسلام والجاهلية وبين التَّوحيد والشِّرك في عالم الواقع. فإمَّا أن يَدينوا النَّاس لله فيكون ربّهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربَّهم..

وهذا هو مفرق الطَّريق بين التَّوحيد والشَرك وبين الإسلام والجاهليَّة في واقع الحياة»[٢٢٨]

ويكمُن الجانب الخاص من العِبرة من هذا الدعاء أيضاً في الاهتمام بإقامة الصَّلاة فقد طلبها النَّبي الكريم في هذا الدُّعاء مرتين اثنتين:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ و ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ...﴾ وذلك لأهمية هذا الرُّكن من أركان الإسلام... فَضلاً عن قيمتها الرُّوحية وفوائدها الصِّحيَّة والنَّفسيَّة.

كذلك ومن الجانب الخاص.

من العبرة في هذا الدُّعاء . . . طلبه عليه السَّلام للرِّزق . . . لأنَّه أصل في استمرار الحياة ونموِّها .

وبهذا يكون هذا الدعاء شاملاً لخيري الدُّنيا والآخرة ـ وهذا هو شأن الأنبياء جميعاً . . . إذا فكَّروا في الدُّنيا لا يلهيهم ذلك عن شأن الآخرة في شيء وما ذاك إلاَّ لأنَّ هذا الدُّعاء أصلاً من كِتاب اللَّه العزيز ذلك الكتاب الذي أُنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون منهجاً قويماً وصراطاً مستقيماً يعلِّمنا القول ويعلِّمنا العمل . . .

أمَّا القول فيبدو في أسلوبه الرائق وبيانه الفذ وأمَّا العمل ففي منهجه القويم وشريعته الصَّائبة ـ وصدق سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا . . . ﴾

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

الهوامش

(١) سورة الأعراف ٥٥

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضي الزبيدي ط١ المطبعة الخيرية بجمالية مصر (دَعَوَ)

(٣) نفسه «دَعَوَ» (بتصرُّف)

(٤)نفسه «دَعَوَ» (بتصرُّف)

(٥) مقاييس اللُّغة. ابن فارس ط١ القاهرة سنة ١٣٦٦ «دَعَو»

(٦) نفسه «دَعَوَ»

(٧) نفسه «صَلَى»

(٨) صحيح مسلم بشرح النَّووَي (صيام ١٥٩)ط عام ١٩٧٢م دار الفكر بيروت.

(٩) مقاييس اللُّلغة (صَلَى).

(١٠) سورة البقرة ١٧١.

(١١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني. تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني. دار المعرفة بيروت (دَعَا).

(١٢) سورة النور ٦٣ (خوطب بها من كان يدعوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيا محمد ويا أحمد).

(١٣) سورة الزمر ٨.

(١٤) سورة يونس ٢٥.

(١٥) سورة الأعراف ٥.

(١٦) سورة يونس ١٠. فضلاً انظر المعاني السابقة في المفردات في غريب القرآن للراغب (دعا)

(١٧) سورة غافر ٦٠.

(١٨) سورة البقرة ١٨٦.

(١٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/٦٨٦ كتاب الشعب.

(٢٠) سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (كتاب الدعاء) ط ١٩٥٢م دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢١) نفسه.

(٢٢) الأدب في الدِّين، أبوحامد الغزالي تحقيق أحمد أبوزينه ص٣٣ ط٤، دار الشروق.

(٢٣) أي الافتقار إلى الله.

(٢٤) سنن الترمذي، الجامع الصحيح، أبوعيسى محمد بن عيسي الترمذي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف (دعوات) دار الفكر.

(٢٥) يدخل في الرَّحِم جميع حقوق المسلمين وظالمهم.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٢٦) تنبيه الغافلين. الشيخ نصر الدِّين السَّمرقندي. تحقيق عبدالعزيز الوكيل، ص ٤٣٤ـ ٤٣٥، ط١، دار الشروق.

(٢٧) ذُكرت أحاديث كثيرة في صحيح البخاري ومسلم وسنن ابن ماجه والترمذي عن ذلك.

(٢٨) هذه السَّاعة لم تُحدَّد لذا يجب تحرِّيها في أي وقت من الجُمَعة.

(٢٩) الاستشفاء بالدُّعاء، إبراهيم محمد الجمل، ص٣٠ وما بعدها، دار الاعتصام، بيروت (بتصرُّف).

(٣٠) سورة البقرة ١٨٦.

(٣١) سورة غافر ٦٠.

(٣٢) سورة الفاتحة ٦ ـ ٧.

(٣٣) سورة البقرة ٢٨٦.

(٣٤) سورة إبراهيم ٣٧.

(٣٥) سورة القمر ١١.

(٣٦) سورة القصص ٢٤.

(٣٧) سورة آل عمران ١٧٣.

(٣٨) سورة الشعراء ٥١.

(٣٩) فضلا انظر ص (٩) من هذا البحث ولنا بحث آخر تحت الطَّبع إن شاء الله بعنوان (الدعاء العام في القرآن الكريم. أمثلة للتَّحليل والدِّراسة البيانيَّة).

(٤٠) سورة البقرة ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٤١) سورة إبراهيم ٣٥ ـ ٤١.

(٤٢) لم تختلف الروايات في أنَّ المقصود به هو مكة المكرمة فضلاً أنظر في ذلك كتب التفسير مثل: الجامع لأحكام القرآن ١/٥٠٣ كذا التفسير الكبير. الفخر الرازي ٤/٥٣، ط٢ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٤٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. للإمام الحافظ بن حجر العسقلاني، كتاب الحج، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ومعنى يعضد مأخوذة من (العَضُد وهو ما بين المِرفق والكَتِف) ومنها استُعير عَضَدْتُ الشجرة بالمِعْضَد ـ وهو سيف مُمْتَهَن في قطع الشجر.

(٤٤) فتح القدير الجامع بين فَنَّيّ الرِّواية والدِّراية من علم التفسير، محمد الشوكاني ١/١٤٠ ط٢ (بتصرُّف).

(٤٥) فتح القدير ١/١١٣ (بتصرُّف).

(٤٦) جامع البيان عن تأويل أيِّ القرآن، أبوجعفر الطَّبري ١/٥٥٣ ط٣. سنة ١٩٦٨م، مطبعة مصطفى الحلبي وشركاه (بتصرف).

(٤٧) الكشاف عن حقائق التَّأويل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، الزمخشري ١/٢١١ ط الأخيرة (بتصرُّف).

(٤٨) جامع البيان ١/٥٥٣.

(٤٩) الكشاف ١/٣١٢ (بتصرُّف).

(٥٠) المسند. الإمام أحمد بن حنبل ٤/١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ٥/٣٦٢.

(٥١) سيذكر المعنى العام للآيات من سورة إبراهيم ـ قبل دراستها بيانياً ـ مباشرة.

(٥٢) الدعاء الوارد في سورة البقرة ١٢٦ ـ ١٢٩.

(٥٣) سورة البقرة ١١٣ ـ ١٢٠.

(٥٤) في ظلال القرآن. سيِّد قطب ١/ ١١٠/ ١١١، الطَّبعة الشَّرعية سنة ١٩٨٢م، دار الشروق (بتصرُّف).

(٥٥) سورة البقرة ١٢٦.

(٥٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. أبوالسعود ١/ ١٥٨. دار إحياء التراث العربي (بيروت).

(٥٧) تفسير المنار. محمد رشيد رضا ١/ ٤٦٢ (بتصرُّف). ط٢، دار المعارف.

(٥٨) أصل الكلام يارب ولها حالات أخرى جائزة (فضلاً انظر في ذلك التَّطبيق النَّحوي د. عبده الراجحي ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ (بتصرُّف) ١ط سنة ١٤٠٥هـ دار النَّهضة العربيَّة.

(٥٩) تاج العروسي (رَبَبَ).

(٦٠) سورة يوسف ٢٩.

(٦١) تفسير البحر المحيط. محمد أبوحيان الغرناطي ١/ ٣٨٢ (بتصرُّف) ط سنة ١٩٨٢م، دار الفكر.

(٦٢) نفسه ١/ ٣٨٣.

(٦٣) الأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب أي طلب الفعل على وجه اللُّزوم وقد يخرج إلى أغراض أخرى تفهم من السياق.

فضلاً انظر في ذلك علوم البلاغة. لأحمد المراغي. مراجعة محمود أمين النواوي، ص٧٦، ط٦.

(٦٤) المفردات في غريب القرآن ـ الأصفهاني (جَعَلَ).

(٦٥) سورة الأنعام ١.

(٦٦) سورة النحل ٧٢.

(٦٧) سورة البقرة ٢٢.

(٦٨) سورة القصص ٧.

(٦٩) سورة النَّحل ٥٧.

(٧٠) ذكر ذلك الكشاف ١/ ٣١٠ كذلك البحر المحيط ١/ ٣٨٣ كذلك التفسير الكبير ٤/ ٥٥ (بتصرُّف).

(٧١) التفسير الكبير ٤/ ٥٥.

(٧١م) نفسه ٤/ ٥٥

(٧٢) الكشاف ١/ ٣١٠ (بتصرُّف).

(٧٣) المجاز العقلي هو استعمال اللَّفظ في غير ما وَضِع له في اللُّغة وهو عقلي لأن التجوُّز فيه قائم على العقل وله علاقات متعدِّدة.

فضلا انظر ذلك في التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدِّين القزويني الخطيب ضبط وشرح البرقوقي ص٢٩٢ ط١، دار الكتاب العربي (بتصرُّف).

كما ذكر القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة تحقيق الخفاجي ط٢. (المجاز العقلي هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما ليس الاسناد له مع قرينه).

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(٧٤) الكشاف ١ / ٣١٠ (بتصرف) والاكثر دقّة ـ في رأينا ـ أن تُشْبِه القول (نَهْرٌ جارٍ).

(٧٥) مقاييس اللُّلغة، ابن فارس. (عَطَوَ).

(٧٦) الفروق في اللغة ـ أبوهلال العسكري. ص١٦١ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ـ طه سنة ١٩٨٣م.

(٧٧) مقاييس اللغة (رَزَقَ)

(٧٨) الفروق في اللُّغة ١٦١.

(٧٩) المفردات في غريب القرآن ـ الاصفهاني (ثَمَرَ).

(٨٠) مقاييس اللغة (ثَمَرَ).

(٨١) البحر المحيط ١ / ٣٨٤.

(٨٢) علم البيان د. يوسف البيومي، ص٧٦ ط ١٩٧١م.

(٨٣) سورة المائدة ٢٦.

(٨٤) سورة البقرة ١٢٤.

(٨٥) التفسير الكبير ٤ / ٥٥ (بتصرُّف).

(٨٦) من أوجه إلقاء الخبر على خلاف مقتضى الظَّاهر ـ وهنا أنزل فيه غير السَّائل منزلة السَّائل فضلاً انظر في ذلك التلخيص في علوم البلاغة للقزويني، ص٤٢ (بتصرُّف).

(٨٧) أخذ من التفات الإنسان يميناً وَيَساراً رفهو في الكلام يعني الانتقال من صيغة إلى صيغة (من خِطَاب إلى غِيْبَة إلى خطاب وهو يُلقَّب بِشَجَاعَة العربيَّة.

فضلاً انظر تفصيل ذلك في الطِّراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني ٢ / ١٣١ ضبط وتدقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العِلميَّة (بيروت).

(٨٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١٠ / ١٥٩) بتصرُّف).

(٨٩) فتح القدير ١ / ١٤١ (بتصرُّف).

(٩٠) التفسير الكبير ٤ / ٥٥ (بتصرُّف).

(٩١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٩٢) نفســـه.

(٩٣) وقرئت قراءة ثالثة بكسر الهمزة وإدغام الضَّاد في الطَّاء وهي لغة مرذولة.

فضلاً انظر تفصيل ذلك في إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ١٥٩.

(٩٤) التفسير الكبير ٤ / ٥٦ (بتصرُّف).

(٩٥) سورة البقرة ١٧٣.

(٩٦) التذييل هو إعقاب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتَّأكيد والتَّقوية وهو هنا مِمَّا يَجري مَجْرى المثل.

فضلاً انظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ص٢٢٦.

(٩٧) سورة البقرة ١٢٧.

(٩٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني. ـ أبوالفضل الألوسي ٢ / ٢٨٣، ط جديدة ـ منقَّحة ومصحَّحة، دار الفِكر، بيروت.

(٩٩) نفسه ـ نفس الصَّفحة.

(١٠٠) نفسه ـ نفس الصفحة.

(١٠١) وهي طريقة من طُرق الإطناب في علم المعاني ـ فضلاً انظر تفصيل الإطناب وطُرُقه الطِّراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ص٢٢٩ ـ ٢٤٤.

(١٠٢) روح المعاني ١/٣٨٣.

(١٠٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/١٦٠ (بتصرُّف).

(١٠٤) نفسه ـ نفس الصفحة.

(١٠٥) نفسه ـ نفس الصفحة.

(١٠٦) نفسه ـ نفس الصفحة.

(١٠٧) هي قراءة أبَي وعبدالله. ورد ذلك في البحر المحيط ١/٣٨٧٨. (بتصرُّف).

(١٠٨) المرجع السَّابق ـ نفس الصفحة.

(١٠٩) انظر ما قبل ذلك ص ١٦ من هذا البحث في قوله تعالى (ربِّ اجْعَلْ).

(١١٠) البحر المحيط ١/٣٨٨.

(١١١) نفسه ١/٣٨٨ (بتصرُّف).

(١١٢) سورة البقرة ١٢٨.

(١١٣) مقاييس اللُّغة ـ (سلم) (بتصرُّف).

(١١٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/١٦١.

(١١٥) التفسير الكبير ٤/٦١ (بتصرُّف).

(١١٦) سورة البقرة ١٢٤.

(١١٧) التفسير الكبير ٤/٦١ (بتصرُّف).

(١١٨) الكشَّاف ١/٣١١ (بتصرُّف).

(١١٩) سورة التَّحريم ٦.

(١٢٠) التفسير الكبير ٤/٦١ (بتصرُّف).

(١٢١) جاء في هذا التقديم تعليلات نحويَّة ذكرها أبوحيَّان في البحر المحيط ١/٣٨٩ بينما نرى التعليل البلاغي السابق أكثر صواباً.

(١٢٢) المفردات في غريب القرآن. الراغب (أم).

(١٢٣) قد يُراد بالأمة المفرد وتُطلق أيضاً على الدين وعلى الزَّمان فضلا انظر في ذلك فتح القدير ١/١٤٢.

(١٢٤) الكشـــاف ١/٣١٢.

(١٢٥) نفسه ١/٣١٢ (بتصرُّف).

(١٢٦) المفردات في غريب القرآن (نَسَكَ).

(١٢٧) التفسير الكبير ٤/٦٢.

(١٢٨) روح المعاني ١/٣٨٦ (بتصرُّف).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١٢٩) البحر المحيط ١/٣٩٦ (بتصرُّف).
(١٣٠) نفسه . نفس الصفحة.
(١٣١) المفردات في غريب القرآن (تَوَبَ).
(١٣٢) سورة التَّوبة ١٢٨.
(١٣٣) المفردات في غريب القرنُّ (رَحِمَ) (بتصرُّف).
(١٣٤) روح المعاني ١/٣٨٧ (بتصرُّف).
(١٣٥) روح المعاني ١/٣٨٦ (بتصرُّف) كذلك الكشاف ١/٣١٢ (بتصرُّف).
(١٣٦) المسند، أحمد بن حنبل ٥/٢٦٢.
(١٣٧) المفردات في غريب القرآن (تله).
(١٣٨) نفسه (أي) (بتصرُّف).
(١٣٩) البحر المحيط ١/٣٩٢ (بتصرُّف).
(١٤٠) البحر المحيط ١/٣٩٢.
(١٤١) سورة الكهف ١.
(١٤٢) الكشاف ١/١٤٤.
(١٤٣) المفردات في غريب القرآن (زَكَا) (بتصرُّف).
(١٤٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/١٦٠.
(١٤٥) سورة إبراهيم ٢٥ ـ ٤١.
(١٤٦) فضلا انظر الفرق بين قوله (هذا بلد آمنا) وبين (هذا البلد آمنا) ص١٨ من هذا البحث.
(١٤٧) التفسير الكبير ـ ١٩/١٣٥ (بتصرُّف).
(١٤٨) سورة العنكبوت ٦٧.
(١٤٩) سورة آل عمران ٩٦ ـ ٩٧.
(١٥٠) سورة المائدة ١١٨.
(١٥١) سورة إبراهيم ٣٦.
(١٥٢) تفسير ابن كثير ـ أبوالفداء بن كثير الدمشقي ٢/٥٤١ ط ١٩٨١م دار الفكر، كذلك وردت الرِّواية في تفسير الطَّبري ١٢/٢٢٩.
(١٥٣) سورة القصص ٥٧.
(١٥٤) جامع البيان عن تأويل أي القرآن ١٢/٥٣٥ كذلك التفسير الكبير ١٩/١٣٨ (بتصرُّف).
(١٥٥) التفسير الكبير ١٩/١٣٨.
(١٥٦) تفسير ابن كثير ٢/٥٤٢.
(١٥٧) سورة إبراهيم من آية ١٩ ـ ٥٢. فضلًا انظر في ذلك النَّظم الغنيِّ في القرآن. عبدالمتعال الصعيدي، ص١٦٣، مكتبة الآداب ومطبعتها.
(١٥٨) البحر المحيط ٥/٤٣٠ (بتصرُّف).

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١٥٩) سورة إبراهيم ٣٥.

(١٦٠) روح المعاني ٥/٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(١٦١) سورة البقرة ١٢٦.

(١٦٢) الكشاف ٢/٣٧٩ (بتصرُّف).

(١٦٣) البحر المحيط ٥/٤٣٠.

(١٦٤) روح المعاني ٥/٢٣٣.

(١٦٥) فضلاً راجع تعريف المجاز العقلي في هامش رقم ٧٣ من هذا البحث.

(١٦٦) سورة النساى ١٠١.

(١٦٧) سورة النساء ٦٧.

(١٦٨) مقاييس اللغة (جنب).

(١٦٩) نفسه (جنب) (بتصرُّف) سمي الجُنُب بذلك لأنَّه يُبعِد عمَّا يَقرُب من غيرُه كالصَّلاة والمسجد وغير ذلك.

(١٧٠) المفردات ـ للراغب (جنب).

(١٧١) سورة المائدة ٩٠.

(١٧٢) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني (جنب).

(١٧٣) البحر المحيط ٥/٤٣٠ أيضا وردت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٣٥٩٧ (بتصرُّف).

(١٧٣م) نفسه. نفس الصفحة.

(١٧٤) التفسير الكبير ١٩/١٣١ وذكر الزوخشري في الكشاف أن لغة أهل الحجاز بالتشديد وكذلك أبوحيان في البحر فيُقال (جَنَّبْنِي) هذا هو الصواب عندنا، فضلاً انظر في ذلك الكشاف ٢/٣٨١ كذلك البحر المحيط ٥/٤٢٩.

(١٧٥) التفسير الكبير ١٩/١٣٣ (بتصرُّف).

(١٧٦) البحر المحيط ٥/٤٣١ (بتصرُّف).

(١٧٧) سبق تعريف المجاز العقلي في هامش رقم ٧٣، ومن علاقاته السَّببية، ومثاله بنى الأمير المدينة أي تسبَّب في بنائها لأمره بذلك. فضلاً انظر في ذلك تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. محمد عبدالرحمن الخطيب القزويني صث٣٥ ط الاخيرة، مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه.

(١٧٨) المفردات في غريب القرآن (ضلَّ).

(١٧٩) المفردات في غريب القرآن (ضل) (بتصرُّف).

(١٨٠) نفسه (غَوَىٰ).

(١٨١) سورة النجم ٢.

(١٨٢) الكشَّاف ٢إ٣٨٠ (بتصرُّف).

(١٨٣) الجملة من أن وما بعدها في محل رفع خبر من السابقة، والمعلوم في علم المعاني أن الخبر قد يؤكَّد بإحدى المؤكِّدات إذا كان السامع ينكر صحة مايُقال له وقد تُزاد هذه المؤكِّدات حسب شدَّة ذلك الإنكار.
فضلا انظر تفصيل ذلك في خصائث التراكيب د. محمد أبوموسى، ص٤٩ ط٢ مكتبة وهبة.

(١٨٤) لأبي حيان رأي آخر ـ وهو لأنه ذكر قبل (واجُنْبني) البحر المحيط ٥/٤٣١ وإنَّما هذا ما رأيناه والله أعلم.

(١٨٥) سورة إبراهيم ٣٧.

(١٨٦) فتح القدير ٣/١١٢ (بتصرُّف).

(١٨٧) البحر المحيط ٥/٤٣١ (بتصرُّف).

(١٨٨) الكشاف ٢/٣٨٠.

(١٨٩) نفسه ٢/٣٨٠.

(١٩٠) نفسه ٢/٣٨٠.

(١٩١) روح المعاني ١٣/٢٣٨.

(١٩٢) البحر المحيط ٥/٤٣٧ (بتصرُّف).

(١٩٣) نفسه ٥/٤٣٧ (بتصرُّف).

(١٩٤) المجاز المرسل هو ما كانت العلاقة بين ماوضِع له وما استعمل فيه ملابَسَه ومُنَاسبة غير المشَابهة ـ مثل قوله تعالى (قُمْ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلاً)، فضلاً انظر تفصيل ذلك في علم البيان د. يوسف البيومي. ص٦٧ ط سنة ١٩٧١م كذلك مختصر المعاني. سعد الدِّين التفتازاني، هامش تلخيص المفتاح ص٢٦٥.

(١٩٥) فتح الباري في شسرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني (إيمان) ٣٩، دار إحياء التراث، بيروت.

(١٩٦) البحر المحيط ٥/٤٣٢.

(١٩٧) فتح القدير ٣/١١٢.

(١٩٨) الكشاف ٢/٣٨٠.

(١٩٩) نفسه ـ نفس الصَّفحة.

(٢٠٠) التفسير الكبير ١٩/١٣٧ (بتصرُّف).

(٢٠١) فتح القدير ٣/١١٢ (بتصرُّف).

(٢٠٢) الكشاف ٢/٣٨٠.

(٢٠٣) نفسه ـ نفس الصَّفحة.

(٢٠٤) الاستعارة، مجاز مُرسل علاقته المُشابَهَة وهي استعمال لفظ المشبَّه به في المشَّبه، والمكنيَّة منها: هي ما حذف فيها المشبَّه به وكنى عنه بشيءٍ من لوازمه ـ فضلاً انظر تفصيل ذلك في تلخيص المفتاح للقزويني ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢٠٥) روح المعاني ١٣/٢٤٠ (بتصرُّف).

(٢٠٦) سورة إبراهيم ٧.

(٢٠٧) سورة إبراهيم ٣٨.

(٢٠٨) الكشاف ٢/٣٨١.

(٢٠٩) فتح القدير ٣/١١٣.

(٢١٠) المطابقة: وتُسمى التَّضاد أيضاً وهي الجَمْع بين المتضادَّيْن أي معنيين متقابلَيْنْ في الجملة، ويكون بلفظَيْنْ، إمّا اسمَيْنْ أو فِعْلَيْنْ ـ كما في الآية، أو من نوعَيْنْ ـ وهو إمَّا طباق إيجاب ـ كما جاء في للآية ـ أو طباق سلْب. فضلاً أنظر تفصيل ذلك في التلخيص في علوم البلاغة. القزويني ص٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢١١) ورد تعريف التذييل في هامش رقم ٩٦ من البحث.

(٢١٢) فتح القدير ٣/١١٣ (بتصرُّف).

(٢١٣) نفسه ـ نفس الصَّفحة.

(٢١٤) سبقت الإشارة إلى السن التي رُزِقَ فيها كل من اسماعيل واسحاق ص٤١ من البحث.

(٢١٥) سورة الصافات ١٠٠.

(٢١٦) فتح القدير ٣/١١٣ (بتصرُّف).

(٢١٧) قد سبق بيان من ما قيل في قوله (ولوالدي) فضلا انظر ص ٤١ من هذا البحث.

(٢١٨) البحر المحيط ٥/٤٣٥ (بتصرُّف).

(٢١٩) سورة البقرة ١٢٦.

(٢٢٠) التفسير الكبير ٤/٥٥ (بتصرف).

(٢٢١) سورة إبراهيم ـ الآية ٣٥.

(٢٢٢) نفس السورة والآية السابقة.

(٢٢٣) سورة البقرة ـ الآية ١٢٦.

(٢٢٤) سورة إبراهيم ـ الآية ٣٧.

(٢٢٥) التفسير الكبير ٤/٥٥ (بتصرف).

(٢٢٦) سورة إبراهيم ـ الآية ٣٧.

(٢٢٧) نفس السورة والآية السابقة.

(٢٢٨) في ظلال القرآن. سيِّد قطب ٤/٢١١١.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم

(أ)

٢ ـ الأدب في الدين . أبوحامد الغزالي. تحقيق عبدالله أحمد أبوزينه ط٤. دار الشروق.

٣ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. أبوالسعود ـ محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٤ ـ الاستشفاء بالدعاء. إبراهيم محمد الجمل. دار الاعتصام. بيروت.

٥ ـ الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. شرح وتعليق د. محمد عبدالمنعم خفاجي ط٢ سنة ١٩٥٣م. دار إحياء الكتب العربيَّة.

(ت)

٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس. محمد مرتضي الزبيدي. ط١ المطبعة الخيرية بجمالية مصر.

٧ ـ التطبيق النَّحوي. د. عبده الراجحي. ط سنة ١٩٨٥م. دار النهضة العربية.

٨ ـ تفسير ابن كثير. أبوالفداء بن كثير القرشي الدِّمشقي. ط سنة ١٩٨١م دار الفِكر.

٩ ـ تفسير البحر المحيط. محمَّد أبوحيان الغرناطي ط سنة ١٩٨٢م. دار الفِكر.

١٠ ـ التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ط٣. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

١١ ـ تفسير المنار. محمد رشيد رضا. ط٢. دار المعارف.

١٢ ـ التلخيص في علوم البلاغة ـ جلال الدين القزويني الخطيب. ضبط وشرح البرقوقي ط١. دار الكتاب العربي.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

١٣ ـ تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. محمَّد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني ط. الأخيرة. مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

(ج)

١٤ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبري ط٣ سنة ١٩٦٨م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وشركاه.

١٥ ـ الجامع لأحكام القرآن. أبوعبدالله محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي. كتاب الشعب. دار الشعب.

(خ)

١٦ ـ خصائص التراكيب. د. محمد أبوموسى. ط٢. مكتبة وهبة.

(ر)

١٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني. أبوالفضل الألوسي. ط جديدة منقَّحة ومصحَّحة. دار الفكر. بيروت.

١٨ ـ سنن ابن ماجه. الحافظ أبوعبدالله محمد بن يزيد القزويني. تحقيق وضبط محمد فؤاد عبدالباقي. ص سنة ١٩٥٥م دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبي وشركاه.

١٩ ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح) أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف. دار الفكر. بيروت.

(ص)

٢٠ ـ صحيح مسلم. شرح النَّووي. ط٢. سنة ١٩٧٢م. دار الفكر. بيروت.

(ط)

٢١ ـ الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز يحيى بن حمزة العلوي اليمني. ضبط وتحقيق جماعة من العلماء. إشراف. النَّاشر. دار الكتب العلميَّة. بيروت.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(ع)

٢٢ ـ علم البيان . د. يوسف البيومي . ط سنة ١٩٧١م . مطبعة دار نشر الثَّقافة . الجمالية . القاهرة .

٢٣ ـ علوم البلاغة . البيان والمعاني والبديع ـ أحمد مصطفى المراغي . مراجعة محمود أمين النواوي . ط٦ سنة ١٩٧٢م . المكتبة المحمودَّية التجارية . مصر .

(ف)

٢٤ ـ فتح القدير الجامع بين فنَّيّ الرِّواية والدِّراية من علم التفسير. محمد الشوكاني . ط سنة ١٩٦٤م .

٢٥ ـ الفروق في اللُّغة . أبوهلال العسكري . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة . ط٥ سنة ١٩٨٣م .

٢٦ ـ في ظلال القرآن . سيد قُطب . الطبعة الشَّرعية الحادية عشر . سنة ١٩٨٢م . دار الشروق .

(ك)

٢٧ ـ الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الزَّمخشري الخوارزمي . حقَّق الرِّواية محمَّد الصادق قمحاوي ط الأخيرة سنة ١٩٧٢م . شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه .

(م)

٢٨ ـ مختصر المعاني . سعد الدين التفتازني (هامش تلخيص المفتاح للقزويني) ط الأخيرة . مكتبة مصطفى الحلبي وشركاه .

٢٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي . لفيف من المستشرقين نشره د . أ . ي ونستك سنة ١٩٣٦م مكتبة بريل .

٣٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وضع محمد فؤاد عبدالباقي . تقديم منصور فهمي . مطابع الشعب .

٣١ ـ معجم مقاييس اللُّغة. أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريّا تحقيق. عبدالسَّلام هارون. ط١ سنة ١٣٦٦هـ. القاهرة. دار إحياء الكتب العربيَّة. عيسى الحلبي وشركاه.
٣٢ ـ المفردات في غريب القرآن. الرَّاغب الأصفهاني. تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني. دار المعرفة. بيروت.

(ن)

٣٣ ـ النَّظم الغنيِّ في القرآن. عبدالمتعال الصَّعيدي. مكتبة الآداب ومطبعتها.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى